روايات غادة

غادة

قصر الأحلام

www.elromancia.com

مرمورية

دار العلم للجميع
بيروت - لبنان

روايات غادة

قصر الأحلام

أماندا دايلي

أمضت عمرها ضعيفة الشخصية، قليلة النضوج . لا صديق ولا صديقة لها من سنها، فلها جسد طفلة وشخصيتها . لكن جيما ماك كاي كبرت في غفلة من الزمن .. دون أن ينتبه هذا ، سيد القصر الكونت راؤول كونسويك تيمبيرا . . السيد الارستقراطي الذي أخذها إلى قصره لتكون رفيقة لعب لابنة أخيه الصغيرة . وحين انتبه إلى هذا التطور، كانت هيلين، الفاتنة، وصديقة جيما التي تكرهها منذ الصغر، قد استولت على لبه . . فالى أين ستصل كرهية هيلين لها . . وأي دور لراؤول في ما يجري ؟

يطلب من مكتبة الصفاء
ابو ظبي
تلفون ٧٧٢٠٥٣

يطلب من دار إحياء العلوم
الدار البيضاء
تلفون 319411

يطلب من شركة دار الفكر
تونس
تلفون 564785

وكيل التوزيع الوحيد في الكويت
الطعمي للنشر والتوزيع
تلفون ٣٧٢٨٩٩

١٠

كنز الشاطىء المهجور

خاتم الزواج كان طوقاً عريضاً من البلاتينيوم . . إلى جانبه، خاتم الخطوبة، القديم جداً، والجميل جداً، دائرة من اللآلىء البرّاقة تشبه الدموع المتجمدة، نقي، ثمين، ليس فيه شائبة مثله مثل كل عروس كان لها شرف أن تُنتقى كعروس للكونت ليندرو تيمبيرا عبر القرون . . «إنه خاتم الطهارة والعفة . . يتطلب ممن تضعه في إصبعها نفس الطهارة والعفة . . ولو أن أياً من رجال العائلة منح شرفه لمن لا تستحقه، فانتقام التنين سيتصاعد!» . . كل شيء أو لا شيء . ! هذا هو شعار عائلة تيمبيرا، صلب لا يلين ولا يتنازل مثل الرجال الذين يحملون الاسم .

ـ أتمانعين ؟

صوت رجالي أجش عميق أعاد الفتاة إلى حاضرها، يطلب إذناً باشعال سيكار رفيع أسود طويل . . للحظات عكست عيناها التحفظ، تردد بديهي أمام التعامل مع الغرباء، ثم احمرت وجنتاها وهي ترد على

زوجها، الذي تزوجته منذ ساعة :

ـ أوه . . طبعاً . . أرجوك . . إفعل ما تشاء !

الصالون الرئيسي للكاستيل، كان يضج بالضيوف. كلهم بثياب فاخرة . . النساء، السود العيون، القاتمات الشعر، كن يتهامسن سرّاً وراء أيديهن التي تزينها الحلى الفاخرة . . وأزواجهن الأقل فضولاً منهن بكثير، كانوا يحاولون عبثاً كبح جماح زوجاتهم المثرثرات .

وضع راؤول يده تحت مرفقها قائلاً :

ـ أظن حان الوقت للاختلاط بالضيوف .

وبدأ يقودها نحو أقرب مجموعة من الضيوف . لساعة كاملة تحملت كرب التقديم للموجدين، وتلقي أطيب التمنيات . . لكن كل هذا لم يخدعها . . فللكلمات المنمقة وقع فارغ والابتسامات التي رافقتها كانت باردة . . إنها دخيلة . . كلهم يعرف هذا . كيف لا تكون وراؤول كونسويك فيرديناند، كونت لبثدرو تيمبيرا، كان يصرّح في أكثر من مناسبة عن كرهه للنساء . . خاصة الاميركيات ؟

تحركت، تحت قيادته، نحو صفوف ممن أحست أنهم أعداء لها . تحت قماش فستانها الناعم الرقيق كان قلبها يخفق خوفاً . . لكن وجهها كان يعكس نوعية من الصفاء والسكون مكنت الكونت من الاسترخاء، وتخفيف حدة قبضته عليها .

بعد قليل، حان وقت الذهاب إلى قاعة الطعام حيث طاولات ضخمة طويلة مغطاة بقماش حريري فاخر، مليئة بأفخر أنواع الكريستال، والفضية الأنيقة، وتنسيقات تخطف الأنفاس من الزهور والورود تنتظر تقديم غداء الزفاف .

هذا الجزء، كان الأسهل لها . ربما لأنها أخذت تتكيف مع ما حولها أو لأن راؤول كان مسترخي الأعصاب تماماً وقد توقف عن مطالبتها بأن

تظهر الوقار المتوقع منها . . وهو طلب كانت ردة فعلها عليه مقهورة في البداية . . لكنه الآن في مزاج رقيق، فمه يلتوي بخطوط التساهل . . لقد أرضته إذن ! لقد انتهى الأسوأ الآن ، وسرعان ما يسمح لها بالعودة إلى تفاهة الذكر التي جاءت منها . .

لم يكن كل الضيوف متباعدين عنها . . فالدون دياغو خال راؤول، الجالس إلى يمينها، ومحط اهتمام النبيلات اللواتي كانت عيونهن الخبيثة تضيء ببسمة مفتعلة كلما التقين بعيونها . . وكانت تقطّع القريدس (الاربيان) في طبقها دون تركيز حين التفت إليها .

ـ ألم يعجبك «الانغوستينوس» كارا ؟

سقطت الشوكة من أصابعها المرتجفة، فارتفع حواجب الأقرب منها . . على الفور تحول اهتمام راؤول إليها ، لكن خاله سارع لاصلاح الخطأ الذي سبّبه دون قصد :

ـ على فكرة راؤول، لماذا لم تحضر كارلا الصغيرة هذه المناسبة الهامة ؟ كنت أتصور أنها متشوقة لحضور زفاف عمها مع صديقتها . . هذا الاتفاق لا بد أسعدها جداً على ما أظن ؟

سرت همهمة خفيفة بين الحضور . فكلمة اتفاق لم تكن أفضل كلمة منتقاة، والتواء الشفتين السريع فضح تبرم الدون دياغو وسخطه . . لكن رد راؤول الموجز جعل الدم يتصاعد إلى وجنتي جيما :

ـ ميل كارلا للتصرفات السيئة، دفعني مرة اخرى لعقابها . هذا الصباح لم يكن أمامي خيار سوى نفيها إلى غرفتها لما تبقى من اليوم، ربما تبدأ في أن تلاحظ أن التفاسير التي تقدمها، مهما كانت عفوية، لن تكون عذراً للعصيان .

كادت جيما تصرخ . . استلزمها جهد كبير من إرادتها كي لا ترد على الكونت المستبد وتتهمه بالقساوة المتعمدة نحو الطفلة الحساسة المرتبكة

التي حرمت منذ مدة قصيرة من الأبوين معاً. أبوان كانت غلطتهما الوحيدة خلال سبع سنوات من أبوتهما السعيدة اختيار وصي خاطىء لابنتهما الوحيدة.

وكأنما أحس بثورتها، فالتفت راؤول إليها، ثم هز كتفه دون اكتراث، وصرف النظر عن موضوع ابنة أخيه واستدار إلى من كان إلى جانبه يكمل الحديث.. السخط دفع بالجفاف إلى حلق جيما، لتجد ازدراء الطعام صعباً. فالطفلة كانت مغتبطة بجنون حول توقعها أخذ دور لها في مراسم الزفاف.. ولأيام لم تتكلم إلاّ عن واجباتها التي ستقوم بها.

بعد الغداء، أخذ الضيوف بالانصراف تدريجياً.. وكان راؤول يقول مبتسماً، وهو يشكرهم لحضورهم:

ـ أجّلنا شهر العسل بسبب ضغط العمل.. دون شك سنحدد موعداً لاحقاً هذه السنة..

دون دياغو كان آخر المودعين.. سيارته الفاخرة والسائق، كانا بالانتظار أمام الباب.. لكنه تردد حين سمع راؤول يهمس لعروسه بتهذيب رسمي:

ـ للساعات القادمة سأكون في المكتبة لأنهي بعض الأعمال.. أرجو أن تتأكدي من أن لا يزعجني أحد.

ردها البارد دفع الدون دياغو لرفع حاجبيه، حين سمع وقع أقدام ابن أخته تتراجع إلى الداخل، عاد إلى ردهة القصر.. حيث كانت جيما لا زالت تقف حيث تركها عريسها، طيف نحيل، مستوحش، رأسه محني تتساقط عليه أشعة الشمس المتسللة من النوافذ لتشكل هالة حول شعرها الكستنائي.. في ثوبها الأبيض النقي، كانت تذكره براهبة تتحضر لتقديم التضحية على مذبح الواجب.

تقدم نحوها:

ـ يا ابنتي..! أيمكن أن نتمشى قليلاً في الحديقة؟

ردت متلعثمة، تكاد تبتسم:

ـ سأحب هذا كثيراً دون دياغو.

سارا عبر الحدائق نحو مؤخرة القصر، يمران بمساكب الورود التي تستحم في أشعة الشمس.. ثم إلى المروج المقصوصة العشب، إلى أن وصلا إلى أرض أقل رعاية وأقل خضرة، حيث توقفا عند حافة جرف صخري يطل على مجموعة صخور شديدة النتوء تصل إلى خليج صغير، حيث الرمال الذهبية ترتمي تحت أقدام أمواج البحر وكأنه عباءة حورية البحر. باتفاق غير ملفوظ جلسا معاً على مقعد وُضع بكل عناية منذ سنوات طوال على يد محب لما يحيط به من جمال.. والتفتت إلى الخلف من على كومة الصخور التي تشكلت منها حجارة القصر.. فلاحق الدون دياغو نظرتها ومد يده ملوّحاً:

ـ قصر التنين، كما اعتقد، هو طراز انكليزي أصيل. ألم تخافي قليلاً عزيزتي من انضمامك بالزواج إلى رجل كان يشير إليه أعداءه باسم «الحاكم المتوحش»؟

كان متحضراً لرد ضاحك، لكن حين تلاشى اللون من وجنتيها وانخفضت رموشها متأخرة لتكشف الخوف تحتها.. أخذ يتمتم حانقاً وحاول التخفيف من هول كلماته:

ـ أختي الراحلة.. والدة راؤول كانت تتلقى مني المزاح المزعج دائماً في هذا الأمر. كنت دائماً أشك أن رجال عائلة تيمبيرا يتمتعون بسمعة إسمهم. وطبعاً، كانت وسامتهم السمراء، إضافة إلى ميلهم الموروث إلى العاطفة الكئيبة، لم تبعدهم كثيراً عن هذه الصورة. طوال قرون، بقيت نساؤهم وفيات محبات، ولم يسجّل في تاريخهم زواج محطم أو

تعس واحد هذا ما يؤكد لي افتراضاً خاصاً بأن هؤلاء النسوة كانت لهن الحظوة في مشاهدة زاوية مخبئة من رجال العائلة، لم تكن معروفة سوى للقليل من الناس. وهذا ما برهنته لي شقيقتي مرة حين دافعت عن زوجها بعناد ظاهر. ففي مرة، خلال موجة سخط، أشرت إليه باسم «الوحش» لأتلقى صداً منها: «اللوم عليك لأنك أثرت غضبه، فالعظيم لا يروّض بالقوة، بل بالمداهنة فقط.. ومن يتقبل هذا الواقع وحده من سينال شرف سماع هرير الدراغون».

ابتسمت جيما. فالصورة التي رسمها لهرير راؤول كانت حلماً خيالياً بعيد جداً عن أن ينظر إليه بجدية:

- لا بد أن شقيقتك كانت غارقة في حبه عزيزي.. لذلك من الممكن فهم سبب نظرتها المثالية لزوجها.

تبع كلماتها صمت حزين، اعتبره الاثنان اعترافاً بالحقيقة. وهز دون دياغو كتفيه بقلق كبير، ازداد عمقاً حين شاهد دمعتين كبيرتين عالقتان في رموشها.

- أنا كبير جداً في السن لأشعر بالفضول كارا. لكن إذا كان الكلام يساعدك فأنا مستعد للاصغاء.

لدقائق قلقة، غير واثقة، نظرت إليه.. حين لم يحرك نظره عنها همست.

- لقد ارتكبت غلطة فادحة عزيزي دياغو.. لكن لأجل كارلا يجب أن استمر فيها حتى النهاية!

قال لها بلطف:

- إبدأي منذ البداية.

في البداية تلعثمت، تفتش عن الكلمات، ثم بعينين مثبتتين على الأفق المحدب للبحر، بدأت تكشف عن سلسلة من الأحداث قادتها

إلى حالتها الحاضرة. وفاجأته بالقول:

- ابتدأ كل شيء من نيويورك.. كنت أعمل هناك في مكتب محاماة، في مواجهة «مكتب سفريات عالمية، كانت نوافذه دائماً برّاقة بملصقات تظهر الشواطىء الذهبية، والسماء الزرقاء، والناس السعداء، وتلك الملصقات هي التي جعلتني أقرر. لقد عشت معظم حياتي مع جدتي.. والداي ماتا حين كنت صغيرة، وهي من رباني إلى أن ماتت منذ ستة أشهر.

فطباعة العقود، والوصايا، يوماً بعد يوم مملة حتى الموت. ولكي أغير الجو قليلاً، كنت أذهب وقت الغداء إلى وكالة السفر لاتفرج، وأحسد الزبائن الذين يجدون صعوبة في انتقاء مكان سفرهم. فهذه صعوبة لم أواجهها مطلقاً.. منذ البداية كانت جزيرة «لانزاروت» مثالي الأعلى للسياحة، ومع أنني لم أكن أتصور يوماً أنني قد اتحمل مصاريف زيارة لها، إلا أنني كنت أمضي ساعات اختار المنتجع والفندق الذي أفضل.. ثم.. عرفت بالمال الذي تركته لي جدتي.. مبلغ بسيط حسب مقاييسكم.. لكنه كان يكفي لأحول الحلم إلى حقيقة.

- أرجو أن لا تكون جزيرتنا قد خيبت أملك؟

- لا.. ليس الجزيرة التي خيبت أملي.. لكن بعض الرجال في الفندق الذي نزلت فيه...

هز رأسه متفهماً:

- طبعاً.. وماذا كنت تتوقعين؟ فتاة صغيرة لوحدها في جزيرة للرومانس.. أي رجل يمكنه مقاومة مثل هذا الإغراء؟

- كنت أختبىء منهم، لم تكن لي خبرة مع الرجال.. ما عدا رب عملي العجوز.. وهكذا، كل يوم بعد الفطار كنت أركب الباص إلى «مونتاناس دل ڤيوغو» لافتش عن فسحة من شاطىء أستطيع أن أمضي

النهار فيه لوحدي .

ـ أه . . هذا يفسر خيال كارلا في إيجاد كنز على الشاطىء!

ـ أنت إذن من كان يمضي الساعات تلعبين مع الصغيرة . . أنت من أضاء أيامها لدرجة دفعتها لأن تستعجل فطارها كي تصل إلى الشاطىء . . بينما كانت من قبل تُجبر على مرافقة أحد الخدم !

ـ لم أكن أعرف أن الشاطىء خاص . في البداية بدا لي مهجوراً . . و . .

ـ آمناً ؟

ـ ربما .

وتنهدت . . كأنها تقرأ ما يفكر به، وتعطيه الرد :

ـ في يوم . . اكتشف الكونت سرنا . . كان في طريقه ليسبح حين سمع ضحكنا . في البداية، ظننته يبدو غاضباً ليجد ابنة أخيه تلعب مع غريبة، متطفلة على أملاكه . لكن بعد عدة اسئلة حادة سمح لي بالبقاء . . بعد أيام طلب من كارلا أن تدعوني إلى القصر للغداء . . في نفس اليوم، عرض عليّ عملاً . قال إنني سأحصل على منزل جميل، فخامة في العيش، وأمان مدى الحياة، مقابل مرافقتي لكارلا . . إضافة . . إلى . زواج مصلحة، يتم عقده لغرض وحيد هو إبعاد الشبهة ومنع أقاول الجيران . .

زفر الدون دياغو أنفاسه بغضب عبر أسنانه .

ـ يا إلهي ! لا يمكنني أن أصدق حتى أن راؤول قادر على إظهار قلة الإحساس هذه !

حين أجفلت ازداد قلقه . . كانت لا تزال طفلة ، ومجرد التفكير بأن ترتبط مدى الحياة بوعد لن يتحقق، أثاره وأغضبه .

ـ ولماذا قبلت مثل هذا الاقتراح بحق الله؟ لماذا لم ترفضي العرض

البارد بكلمات تترك راؤول دون شك من القرف الذي لا بد أحسست به ؟

احمرت وجنتاها وهي ترد :

ـ كنت وحيدة . . وكارلا تحتاجني . . وأنا أعرف جيداً معنى التشوق للحب والتفهم . . ثم، إضافة إلى هذا . .

وتلاشى صوتها إلى همس، وكأنها تحس بالخجل أن تعترف بعوزها للاستقلالية في حياتها :

ـ الصمت قد يصيب امرأة مستوحشة بالصمم الكامل . .

www.elromancia.com

٢٠

وخز الضمير!

دخلت جيما الحمام لتستحم، الماء البارد اللذيذ أنعشها وأبعد الاكتئاب الذي أحنى كتفيها. فاستعادت ببطء روحها المعنوية.. قد لا تكون الأمور بهذا السوء. لقد وعدها راؤول بالأمان والفخامة في الحياة، أبعد بكثير من أي شيء عرفته.. وحتى الآن، كل وعوده باقية.. بالأمس استدعيت إلى مكتبته، وفي حضور محاميه، راقبته يسجل توقيعه على تسوية الزواج الكريمة بما يكفي لتؤمن لها الأمان المالي لما تبقى من حياتها.

عادت إلى غرفة النوم لتجلس على كرسي طاولة الزينة.. تحدق مفكرة بصورتها في المرآة.. كم أن حصته من هذا الاتفاق قليلة! ثروته كان يمكن أن «تشتري» له مضيفة لها وزنها وثقتها بنفسها، محدثة لبقة محنكة، لا عيب في وجهها ولا في جسدها. وتذكرت الاسم المستعار الذي كان رفاقها في المدرسة يطلقونها عليها، فاحمرت عيناها وتولاها الجهوم. جيما ماك كاي «السمراء».. ! كان الاسم المزاجي المزعج يصدمها دائماً.. عينان بنيتان، تتحولان إلى ذهبيتان فقط حين تلمعان

بالسعادة، أو يصيبهما النور. شعر بني موشح هنا وهناك بالأحمر والكستنائي.. وسخرت من نفسها مضيفة: وشخصية بنية قاتمة كذلك.. وعادية جداً لدرجة الملل!

في ظرف دقائق كانت قد ارتدت فستاناً قطنياً دون أكمام، أخضر اللون كالبراعم الخضراء. وخرجت إلى الممر نحو غرفة كارلا. وترددت خارج الباب.. كارلا، مثلها، لا تحب قيلولة بعد الظهر.. لكن الصغيرة كانت تبكي.. ولا بد أن تكون مرهقة، ولا ترغب جيما في أن تزعجها لو أنها نائمة.. بالكاد كانت تتنفس وهي تخطو ببطء إلى الداخل.. لكن الإحساس أعطى انذاراً لكارلا أنها لم تعد لوحدها فسألت:

- من هنا؟

- ألا يمكن أن تحزري؟

- جيما.. جيما!

ورفعت ذراعيها في اندفاع للسعي وراء الراحة، فضمتها جيما بين ذراعين محبتين:

- أوه... يا للطفلة المسكينة! لا تبكي يا حبيبتي.. أنا الآن معك، وسأبقى دائماً.. أو إلى أي وقت احتجتني فيه.

- إذن سيكون هذا إلى الأبد والأبد! عديني جيما.. عديني!

ضحكت جيما:

- أعدك.. أجل.. أعدك.. أكثر ما تحتاجينه الآن هو الاغتسال، هيا.. أخرجي من الفراش، وبينما تقررين أي فستان سترتدين سأفتح لك ماء الدوش.. بسرعة لا وقت كثير قبل العشاء!

للساعة التالية، أمضتا وقتهما على الشاطىء تبنيان قصوراً من رمال، تتمتعان بريح ساخنة، يدعوها أهل الجزيرة «أنفاس الدراغون».. ثم

www.elromancia.com

لعبتا بالوثب فوق فسحة ناعمة من الشاطىء . . وكانت كارلا نشيطة سعيدة حين عادتا إلى القصر . . لكن كارلا تعثرت حين وصلتا الردهة ووقعت الكرة التي كانت تحملها على الأرض . ضحكها الحاد وهي تلاحقها، كانت كافية لتصل أذني كل من في المنزل. ولا بد أنها اخترقت الباب الضخم الخشبي المحفور المغلق على غرفة مكتبة راؤول . . فقد انفتح بيد نافذة الصبر، وقال مقطباً :

ـ كارلا ! لماذا لست في غرفتك ؟

وقفت الصغيرة دون حراك، لكن ذقنها ارتفع متحدياً ، الطفلة لم تكن طائشة، لكنها ورثت ما يكفي من أطباع عمّها لترد عليه رداً وقحاً إذا أثارها . . لكن قبل أن ترد تدخلت جيما :

ـ ليس جيداً لطفلة أن تبقى وحيدة في غرفة خانقة . . لذلك قررت . . .

ـ قررتِ؟ اتركينا قليلاً يا فتاة !

حين اختفت وقع أقدام كارلا التفت إلى جيما :

ـ قبل أن يتقدم هذا اليوم أكثر، يجب أن نصل إلى تفاهم . . سأراك في مكتبتي قبل نصف ساعة من موعد العشاء، كي أعطيك التعليمات عن كيفية تنفيذ أوامري المستقبلية بدقة .

أقفل باب الغرفة وتركها واقفة جاحظة العينين مرتبكة في الردهة الكبيرة التي بدت وكأنها مليئة بضحك صامت . . .

أخذت وقتاً طويلاً تقرر ما سترتدي للعشاء ذلك المساء . خيارها كان محدوداً، فتركة جدتها لم تكن كبيرة ما يكفي لتسمح لها بشراء أكثر من ثوبين للسهرة . . لكنها لا زالا جديدان والإثارة في امتلاكها لا زالت تتملكها، ثم اختارت الفستان القطني الأخضر بدلاً من المخمل البرونزي . . خطوط الفستان القليلة التعقيد التفت حول جسدها

النحيل، تزيد من نحول الخصر، وتحدد لها الصدر الصغير . . كل النتيجة كانت بسيطة مع نوعية قديمة تناسبت مع ما يحيط بها . . . ستحتاج إلى المزيد من الثياب، قال لها راؤول، ببرود وكأنه يناقش أمر تغيير زي الخدم .

جلست على كرسي طاولة الزينة، تضع يديها الباردتين على وجهها الساخن، تنظر برعب إلى ذراعي الساعة يزحفان ببطء . . وفي الوقت المحدد، بدأت تسير إلى الطابق الأسفل لتقدم نفسها في المكتبة .

ارتجفت جيما وهي تدخل الغرفة، استجابة لأمره بالدخول . وحياها بصوت بارد حاد كالفولاذ :

ـ يونياس ترديس . . دقة مواعيدك تسعدني . فأنا استهجن تفاهة بنات جنسك اللواتي يعانين من وهم أن اهتمام الرجال بهن يزيد أكثر إذا انتظروا طويلاً .

ارتفع حاجبه وهي تبتسم لترد :

ـ كطفلة، لم يكن يُسمح لي بارتكاب أية هفوة تفاهة . . لهذا أنت آمن من هذه الناحية . لن افترض وجود اهتمام حيث أعرف أنه لا يمكن أن يكون موجوداً .

ـ لا يمكن ؟

تنفس سريع أظهر دهشته . . بالتدريج وهو يراقب حطبة تتفتت في نار المدفئة، اعترف :

ـ أنت تظلمين نفسك كارا . . فجمالك واضح . . لكن من يسعى إلى البحث في العمق، لن يجد شيئاً يثير اهتمامه .

أجفلت للهجة الكياسة في صوته . . بالنسبة له، هي شيء تافه لا يستحق حتى الجهد في القاء اطراء لها . صب لها كوب عصير بارد، وأشار إليها بالجلوس ، ثم جلس قبالتها، وبدأ يتفرس فيها وهي تعب

العصير :

ـ يبدو لي أن لدي الآن طفلتان تسكنان القصر، لم أكن أدرك كم أنك ناقصة النضج . . مع ذلك، ربما ليس هذا بالأمر السيء. حين استخدمتك لتسلية كارلا، وابعادها عن طريقي، كنت أعي أن حاجة الطفلة الملحة كانت الرفقة لمن يقارب سنها، مع ذلك لم أكن مستعداً أن ينقلب حال القصر رأساً على عقب على يد أولاد مزعجين. متى تقبلت أن أوامري يجب أن تُطاع بالمطلق . . ستتمكني من الحصول على الاحترام المفروض لشخص كبير من كارلا . أكثر مما تحصلين عليه من رفيقة لعب .

ردت بصوت ضعيف بارد :

ـ من دواعي السرور اكتشاف أن لك روح مرحة سنيور . . حتى ولو كانت قاسية، ولها نوعية خاصة لا تسرّ أحداً سواك . قد تكون محقاً في التلميح إلى أن لي عقل طفلة . . لكن على الأقل، لن تعاني كارلا من النوعية المحنكة للتعذيب الذي سمح لك أن تنتزع من بين يدي طفلة ما كانت تتوق إليه على سبيل العقاب على أمر في الواقع هو مجرد جنحة صغيرة لا ذكر لها .

أحست بقلبها يخفق حين رفع رأسه بحدة والغضب بادٍ من فتحات أنفه المتعجرف .

ـ أتسمين العصيان المتعمد جنحة صغيرة ؟

ـ كانت مهتاجة لأنها انتظرت طويلاً موعد الزفاف . بالنسبة لطفلة، قد يبدو الأسبوع سنة . . وهي حقاً نسيت في غمرة اثارتها أنك حرّمت عليها ايقاظي باكراً . . كما أنني لم أكن نائمة . . .

ـ هذا يكفي !

ـ لماذا لا تحاول التصادق مع كارلا؟ إنها فتاة مسكينة وحيدة . . إنها

تستفقد لأبويها أكثر مما تعتقد . . ألا يمكنك . .

صمتت لحظة وقد غصت الكلمات في حنجرتها وأكملت بصوت متهدج :

ـ ألا يمكنك أن تحاول أخذ مكان أبيها . . شقيقك ؟ فعلى أي حال، لا بد أن تشعر بشيء من الحب لطفل قبلت أن يكون تحت رعايتك . .

تراجع في مقعده إلى الخلف حتى أنه اختفى في الظل . . ولم تعد تستطيع قراءة تعابير وجهه، لكن شيئاً ما في مظهره حذرها من أنها تجاوزت حدودها في الكلام أمام الكونت المتحفظ . بالرغم من النار المتوهجة بدت الغرفة لها باردة . فارتجفت، ثم أجفلت حين خرق صوته الصمت المعتم .

ـ الطفلة موجودة هنا بالإكراه . . ليس بدافع أحاسيسَ أو عطف، لكن لمجرد استرضاء وتهدئة وخز الضمير .

تردد قليلاً ، ثم أكمل ببرود :

ـ أنا واثق أنك ستوافقين على أن هذا أقل ما استطيع أن أفعله، نظراً إلى أنني كنت مسؤولاً عن موت والديها !

www.elromancia.com

٣٠

تحدي اللؤلؤ

حين تلقت جيما رسالة من الفندق الذي كانت تنزل فيه، تخبرها إدارته، أن هناك بعض الأشياء المتبقية لها، تنتظر من يأخذها، وضع دون دياغو نفسه وسيارته تحت تصرفها. المنتجع الذي كانت تنزل فيه في الناحية الأخرى من الجزيرة، على بُعد ساعتين بالسيارة من أعلى الجبل الذي يتربع القصر فيه بعزلته. . كارلا، التي رافقتها، كانت تثرثر دون توقف إلى أن ادخل السائق السيارة، في الطريق الخاصة المحاطة بأشجار النخيل الموصلة إلى الفندق. وتوجهت جيما لوحدها لتأخذ أغراضها. وكانت على وشك العودة حين سمعت صوتاً يناديها :

ـ أيتها السمراء البنية. . جيما! أهذا حقاً أنت ؟

ـ هيلين تينسون؟

أهي حقاً زميلة دراستها القديمة ؟

ـ بلحمها وشحمها! أنت لم تتغيري يا «سمراء بنية» اتعرف على وجهك الصغير في أي مكان !

حاولت جيما التفتيش عن عذر للتهرب من نهر الذكريات الذي يهدد

بالتدفق :

ـ يجب أن أسرع هيلين .

ـ ساسير معك حتى نهاية الممر. لا يجب أن أبتعد عن فناء الفندق، فأنا اعمل هنا. وهذا أول أسبوع لي كمرافقة للزوار. . ولا أجرؤ أن آخذ حريتي إلى أن أعرف كيف تجري الأمور. . في الواقع أتوقع أن يقودني هذا إلى زوج وسيم ثري، لطالما حلمت به .

شهقت جيما :

وهل تتزوجين لأجل المال ؟

ـ طبعاً عزيزتي. وأنت كذلك لو سنحت لك الفرصة!

ـ جيما. . عزيزتي. . كنت على وشك التفتيش عنك . لقد أطلت الغياب أكثر من اللازم .

شهقت هيلين حين نزل دياغو من السيارة الفاخرة ليمسك ذراع جيما. . وسارع السائق يأخذ الحقيبة من يدها، وتعالى صوت كارلا الطفولي من داخل السيارة :

ـ جيما. . لقد افتقدناك! لقد غبت ساعات !

ـ لا تبالغي صغيرتي! لقد التقيت صديقة دراسة وتحدثنا قليلاً. . لن اتركك تنتظري أكثر. . وداعاً هيلين، وأرجو أن تتمتعي بعملك .

تدخل الدون دياغو بحماس :

ـ يا الله ! إذا كانت هذه كما تقولين صديقة قديمة ضائعة فأنا أصرّ أن تقدمينا لبعضنا كي أتمكن من دعوتها لمشاركتنا الغداء !

ـ أنا آسفة سنيور. . أنا أعمل الآن ، حتى الثامنة مساء . لكنني سأكون حرة طوال اليوم في الغد. وسأحب أن أقابلكم في الغد .

ـ للأسف، نحن نادراً ما نزور هذا الجزء من الجزيرة . . ولولا أن الكونت كان مشغولاً لم أتمكن من مرافقة زوجته الكونتيسة إلى هنا . . .

www.elromancia.com

- ومن . . . هي . . الكونتيسة ؟ ليست جيما . . . ؟

أخذت كارلا تقفز على المقعد مهتاجة :

- سي . . سي . . أليس هذا مثيراً! الزفاف تم منذ أيام في كنيسة خاصة في «كازا دو تيمبيرا»! كان يجب أن أكون مرافقة العروس، لكن عمي . . .

- هذا يكفي كارلا . .

ضحك دون دياغو .

- طالما أنكما صديقتان قديمتان ولا بد أن يكون بينكما الكثير تقولانه . . فهذا ما سأقترحه . . سنذهب الآن . لكن عند الثامنة، سنعود لنأخذك معنا إلى «الكازا» حيث تقيمين الليل، ثم نعيدك في اليوم التالي في موعد عملك . أعرف أن راؤول يحس بالقلق لأن ضغط العمل يضطره لترك جيما لوحدها كثيراً . . وسيكون مسروراً لاستقبال صديقة قديمة لها تسليها في وحدتها . ما رأيك، جيما . . أليست فكرة رائعة ؟

ابتسامة هيلين الشريرة كانت تتحدى جيما أن تفسد سعادة دياغو . .

فهزت رأسها موافقة . . وقال دياغو :

- عظيم، اديوس سنيوريتا، حتى المساء .

- ألف شكر سنيور . سأعد الساعات .

بعد الغداء أحست كارلا بالنعاس . . مدير الفندق المتفهم، اشفق على الطفلة، وأجاب طلب دياغو ليجد لها غرفة هادئة تنام فيها . . وهكذا كانت جيما لوحدها مع الدون دياغو حين طلبا القهوة . . وشرباها بصمت . . لكن جيما أخذت تدير في رأسها الطرق المختلفة لتصيغ السؤال الذي ترغب في طرحه على الدون دياغو . . أخيراً، خرج السؤال فجأة، يخلو من أي تصنع، حتى أن الرجل المسن أجفل :

- كيف أصبح راؤول مسؤولاً عن موت أخيه وزوجته ؟

- ديوميو . . ! يا إلهي ! ماذا تقولين ؟

- قال لي هذا بنفسه . . قال إنه مسؤول وإنه يسمح باقامة كارلا معه لأن وجودها يهدىء ضميره المضطرب . أريد معرفة السبب . أرجوك !

- راؤول رفض مساعدتها . . هذا ما أعرفه . . أما ما لا أعرفه، كيف يعتبر نفسه مسؤولاً عن حادثة موت حدثت على بعد أميال من الكازا ، وفي سيارة سريعة، كان يقودها شقيقه، الذي تلقى أكثر من إنذار حول تهوره في قيادة السيارات . لا أفهم كيف يلوم راؤول نفسه ؟

لكن ما سمعته جيما من أقسام الاحجية بدأت تنطبق لتشكل شيئاً ما . . وقع راؤول في حب انكليزية تركته لتتزوج من أخيه الأصغر . رجل، مع كرامة عادية، كان سيجد هذا صعب الغفران، لكن رجلاً تتملكه أطباع آل تيمبيرا سيجد الغفران مستحيلاً . وتوسل الحبيبان الشابان للمساعدة عبثاً . . وحين أكل أعصابهما القلق حدث الخطأ المميت !

وأكمل دون دياغو :

- حسناً، ألا توافقين معي أن راؤول قد أدان نفسه متسرعاً ؟

أدركت الآن أن كلمات راؤول كان يقصد منها أن تصدمها .

فهمست :

- أجل . . بكل تأكيد أرى هذا الآن .

من طبيعة الوحش أن يحتقر الشفقة . . يفضل السير في طريق وحيد، متظاهراً بعدم الإكتراث لأصابع الإتهام ، في وقت يتظاهر بالصلابة، ويلعق سراً جروحه .

طعام العشاء، كان يقدم عند العاشرة من كل مساء . وكان الوقت يقارب العاشرة حين توقفت السيارة أمام الكازا . كانت كارلا ناعسة،

www.elromancia.com

وتمسكت جيما بذريعة التأكد من راحة الفتاة لتهرب من وجود راؤول، ومن مقابلته مع الضيفة، فهي لم تكن تشارك دياغو تفاؤله الذي أرادها أن تصدقه بأن أي صديقة لها ستلاقي الترحيب .

مرت نصف ساعة، أحست بعدها أنها مستعدة للانضمام إلى الموجودين في الطابق الأسفل، لتجد الباب مفتوحاً قيد أنملة وأصوات الضحك تتعالى من الداخل، دفعت الباب في الوقت المناسب لتسمع هيلين تقول :

ـ . . . بالطبع . . كنا مرعبين ونحن صغار، لكن دون خبث في مزاحنا . . اؤكد لك . كنا جميعاً نحبها! سميناها السنجاب، الفأرة، قفة العظام، كلها كانت تجارب . . لكن لم يناسبها شيء إلاّ حين فكرنا باسم «السمراء البنيّة» وهذا ما كانت بالنسبة لنا حتى هذه الأيام .

ألم، قديم، مألوف، تحرك داخل نفس جيما، ذلك الألم الذي أحست به يوماً تلك الفتاة التي كانت بطيئة النمو، العالقة وسط رفاق تمتلىء نفوسهم بشرور المراهقة . . إما متعصبين جداً وإما لا يهمهم أن يحسوا بالشفقة على صديقة، كانت رفيقتها الوحيدة خارج المدرسة امرأة عجوز لها دماغ مبرمج على عادات قرن منصرم . . ضحكة هيلين أدارت السكين في جرح بقي هاجعاً لسنوات، مع ذكرى أيام أمضتها تتوسل إلى جدتها لتحصل على جوارب النايلون بدلاً من الجوارب البيضاء حت الركبة .

كان دياغو أول من لاحظ وقوفها عند الباب . . والعذاب يبدو على وجهها الصغير المرتفع إلى الأعلى، مما دفعه إلى مقابلتها بسرعة . وتساءل في نفسه عما إذا كانت هيلين يوماً صديقة لهذه الفتاة التي تبدو أخلاقها ومظهرها عكسها تماماً .

ـ آه . . برينساسا دولوس أوجوس دواورو !

كلماته كانت لطيفة رقيقة، لكن بوجود هيلين المذهلة الجمال بدا وصفه لها بأميرته ذات العينين الذهبيتين، وصفاً عتيق الزي . . لكن بسمته كانت تشجعها لتتقدم . .

وقالت هيلين بسرور واضح بما يحيط بها وبمضيفها :

ـ حبيبتي . . ! كنا نتحدث عنك! غريب أنك لم تخبري زوجك الوسيم الكثير عن نفسك . . إنه لا يعرف شيئاً عن ماضيك !

لدهشتها، سارع راؤول لنجدتها . . كادت تجفل إلى الوراء حين التفت ذراعه حول خصرها، ثم أمسك ذقنها بيده وضحك بنعومة أمام وجهها المجفل :

ـ أرفض أن أصدق أن من كان لها اسم «السمراء البنية» يمكن أن يكون لها ماضٍ !

بدا على هيلين الغيرة من مظاهر البراءة على جيما :

ـ لا أوافق معك . . فلدينا قول مأثور في بلادنا : «المياه الهادئة تكون عميقة عادة» ويجب أن تعترف سنيور أن زوجتك حتى الآن، لم تخالط دوائر تسمح لها بأن تواجه أي اغراء . . فاحذر! يوم ما ، ستجد نفسك تواجه ثورة !

طوال فترة العشاء حافظت هيلين على اهتمام راؤول بها، وأحست جيما بحريق الإذلال وهو يتجاهلها ويهتم بهيلين، لكنها أحست بالراحة حين خرج راؤول وهيلين يتمشيان في الحديقة وتركاها لوحدها مع دياغو. الذي قال ساخراً :

ـ من حسن الحظ أن جزءاً كبيراً من الحدائق يغمره النور. فأنا لا أثق بتلك المرأة مع أي رجل تحت الستين وفوق السادسة عشرة .

ـ عزيزي! تبدو عليك الغيرة !

ابتسم بحياء :

- ربما أحسست بالتعلق بها في البداية . . وأنا السخيف العجوز! لكنني لم أعد هكذا كارا . . اؤكد لك . . فتحت ذلك البرود الجميل، برود أكبر . . من النوع المتجمد . . إنها تفتقد لصدقك الدافىء، وقلبك الحنون .

سمعا صوت هيلين وهي تقترب مع راؤول إلى الصالون، طبقته الحادة، كانت تلامس خيطاً من الإثارة .

- أرجوك راؤول . . سيكون هذا شرفاً لي ! منذ سنوات يحاول منظمو رحلات السياحة أخذ الإذن بزيارة مصنعك . . فإذا استطعت أن أكون الأولى في المعدل على هذا التنازل ، فسيعني هذا لي الكثير في عملي ضمن المؤسسة، إضافة إلى علاوة كبيرة في المرتب !

أجفلت جيما لسماع اسم زوجها الأول يخرج بسهولة من فم هيلين . وبشكل آلي نظرت إلى وجهه حال دخولهما . . كان فمه متساعاً مثل كلماته حين رد :

- لن أزعج عمالي بقطعان من السياح .

- لكن ليس بالضرورة ازعاجهم ! مجموعاتنا دائماً تتصرف جيداً، والرحلات منظمة كي لا يخرج بها سوى من له اهتمام خاص بصناعة اللآلىء ! أرجوك راؤول . . ألن تعدني على الأقل بدراسة طلبي قبل الحكم عليه ؟

- هز رأسه، فأحست جيما بموجة غيرة تقبض على خناقها ، كان مرحاً مع هيلين أكثر مما كانت تصدق أنه ممكن . وهذا يدل على أنه بالرغم من كراهيته للاجنبيات، فهو عرضه لسحر بعضهن !

سارع دياغو للتدخل يقول لجيما :

- في الغد عزيزتي، إذا سمح راؤول، سآخذك في جولة على المصنع . . وأعدك أن تجدي الرحلة ممتعة . . هل سمعت عن منتجاتنا

عزيزتي جيما ؟

- لا .

شهقت هيلين، وقالت ساخرة :

- لا؟ لكن الجميع يعرف عن صناعة اللآلىء في هذه الجزيرة . الأحجار لا يمكن تمييزها عن الحقيقية إلاّ بعين خبير . . حتى الخبراء كانوا يختلفون في أيها الحقيقية، وأيها الصناعية !

نظر راؤول إلى جيما مبتسماً :

- بدأت التجارب مع أول كونت في العائلة . بالنسبة له كانت ندرة اللآلىء تحدياً . . والجاذبية التي لها بالنسبة للنساء جعلته يصمم على صنع لؤلؤ من صنع يدوي، له جمال يماثل أغلى لؤلؤ العالم، لكن بثمن يجعلها في متناول الناس الأقل حظاً .

مالت جيما في مقعدها إلى الأمام متلهفة لسماع المزيد :

- استمرت الاختبارات سنوات عديدة، لكن الفشل كان يلي الفشل، حتى دفعه هذا إلى التخلي عن الفكرة . بالرغم من أن بعض التجارب كانت جيدة، إلاّ أنه لم يكن ليرضى بأقل من الكمال .

وكان قد أصبح عجوزاً حين حقق هدفه، وحصل على لؤلؤة، كاملة الشكل، لا عيب فيها، وكانت الأولى في أعداد هائلة تعطي ممتلكيها مصدر سعادة لم يعرفها من قبل سوى الأثرياء .

أطبقت اصابعه على يد جيما الصغيرة البيضاء :

- لؤلؤة صناعية واحدة فقط كانت ضمن مجموعة تيمبيرا . وهي الأكثر قيمة . ضمن خاتم العفة، حيث وضعت تلك اللؤلؤة الأولى المكتملة، والتي جاءت معها بالأمل ورفض الرجل لليأس أمام مصاعب لا تصدق .

تنفست جيما بجهد . . فكرة أنها تحمل في إصبعها، ولأسابيع أثمن

ممتلكات العائلة، أخافتها حتى الموت . ماذا لو أضاعتها؟ الخاتم واسع على إصبعها، وأكثر من مرة اضطرت إلى شد قبضتها عليه لمنعه من الوقوع !

لكن سرعان ما نسيت جيما كل هذا حين عادت هيلين إلى محاولة إقناع راؤول . . وقالت تتوسل :

ـ ألا يمكن على الأقل أن تفكر بالأمر راؤول ؟

ـ حسناً . . لأجل زوجتي التي تعتز بصداقتك . . سأسمح لسواحك، أن يزوروا مصنعي .

ـ أوه . . شكراً لك !

قفزت راكضة نحوه، فقاطعها :

ـ لمرة واحدة فقط . . وإذا نجحت التجربة ربما سأسمح بتكرارها .

صاحت، تبدو على استعداد لأن تلف ذراعيها حول عنقه وهو يقف في مواجهتها :

ـ أعدك أن تكون ناجحة !

لكن شيئاً ما في عينيه المتعجرفتين، وفمه المشدود الذي بالكاد كان يبتسم منعها من التهور . . على الأقل في الوقت الحاضر .

تصاعدت غصة إلى حلق جيما بعد أن أدركت الخطر وراء انتصار هيلين . مرة أخرى كانت تستعد لسلب غنيمة ! لكن ما يهمها ما تخسره مع راؤول . . كل همها أن لا تخسر محبة دون دياغو والصغيرة كارلا .

وقفت بسرعة، حتى أن كوب العصير في يدها اهتز وانقلب، ليسكب محتوياته من سائل أحمر على تنورة فستانها . . فارتفعت يدها إلى حنجرتها مرتعبة .

شاهدت السائل يتغلغل ببطء وكأنه يسري سريان السم . . وتقدم راؤول نحوها . . لكنها تراجعت، الرعب في وجهها ظاهر . حتى أنه

شهق وبقي مكانه، ويده تمسك منديلاً أنزله ببطء إلى جانبه . . ورنّ جرس إنذار قوي في رأسها، يحذرها أنها تتصرف هكذا لصالح هيلين . . لكن الرسالة كانت متأخرة .

بصرخة سخط مخنوقة، ركضت إلى غرفتها . . وبيدين مرتجفتين، مزقت الثوب الذي أصبح الآن يمثل لها رمز انتصار هيلين، عن جسدها، ثم رمت بنفسها فوق السرير وتركت لنحيبها أن يهز جسدها النحيل . . بؤسها كان غامراً حتى أنها لم تسمع الطرق على الباب . . بل سمعت صوتاً قلقاً بشكل غريب، وعرفت أنها لم تعد لوحدها .

ـ إنه فستان جميل دون شك، لكن بالإمكان الحصول على غيره .

استدارت جيما، دموعها تنهمر على خدها، ورفرفت لتزيل الغشاء عن عينيها . . كان ينحني فوق السرير، فجلست غير قادرة على ايقاف شهقة نحيب أخيرة، وجذبت الغطاء العاجي اللون للسرير فوقها لتغطي كتفيها العاريين . دهشته من إحساسها بضرورة هذا العمل سبب لها احراراً إضافياً فضح إذلالها . وتابع بهدوء :

ـ كما قلت لك . . لقد وعدت بزيادة عدد ثيابك . لذلك خسارة فستان واحد لا يجب أن تسبب لك كل هذا الألم . . سأعوض لك عنه في أسرع وقت ممكن .

ردت ساخطة :

ـ كجزء من مرتبي . . كما اعتقد؟ دفعة يمليها عليك ضميرك للتعويض عن الإذلال الذي سببته لي بعنايتك بامرأة أخرى !

أخذت فتحات أنفه تتسع، إنها تبدو كزوجة ثغار . . غضب التنين يتصاعد ! وقف متوتراً ، عيناه تقذفان الشرر، شفتاه بالكاد تتحركان حين صبت كلماته النار عليها :

ـ أنت تنسين أن مركزك في هذا القصر هو مركز موظفة . . لكنه

www.elromancia.com

مركز مميز بطريقة ما . . اعترف . . مع ذلك ، وضعك هو، وسيبقى، وضع خادمة :

لو أنه ضربها لما تألمت هكذا . . العنف الجسدي ما كان سيسبب لها هذا الألم في قلبها، الذي أحست به ينعصر حتى تكاد الحياة تتركه .

شهقت جيما للألم . . ثم، ولإثارتها التي لم تحتملها ، تجرأت على الرد .

ـ هذا شيء لا يمكن أن أنساه أبداً! لكن هل لي أن أذكرك سنيور . . أن حتى للخدم بعض الامتيازات المعيّنة . . وأنا لا أذكر أنني دعوتك لتشاركني خلوتي في غرفة نومي . . !

٤٠

جذور البداية

الزيارة لمعمل اللؤلؤ لم تكن زيارة تنتسى . . تمت بجو مرضيّ لهيلين، محير لدياغو، غير مكترث لكارلا . . وأختبأت جيما بين كارلا ودياغو، ، ولم تضطر لادعاء الاهتمام بمراحل التصنيع الأولى . . بل ركزت على الاهتمام ببعض التفاصيل الدقيقة التي ساعدتها على التغاضي عن النظرات الثلجية التي كانت تقول لها مدى سخط الكونت من مهاجمتها له .

أحست جيما بالذهول أمام مراحل التصنيع الأخيرة والقبضة للودّ الذي أظهره العاملون والعاملات، حتى أن دياغو علق ضاحكاً على تبادلها ما تعرفه من اسبانية معهم .

ـ الاسبانيولية في دمها . . أليس كذلك راؤول ؟

تشدقت هيلين، تظهر الغيرة :

ـ أنا كذلك أجد سهولة في فهم الأسبانية، لكن، في وقت أفضل أنا منه الاختلاط بالطبقة الراقية، تجد جيما نفسها أكثر ارتياحاً مع عامة الشعب .

www.elromancia.com

الرأي هذا قالته بصوت مرتفع ليصل أسماع جيما ، التي تلاشت السعادة عن وجهها، وعادت إلى تحفظها وارتباكها .

ولسبب ما، ظهر الانزعاج على راؤول .

ـ هل لنا أن نعود الآن إلى الكازا؟ سنترك ما تبقى من الزيارة ليوم آخر .

أرجع كم سترته إلى الوراء ينظر إلى الساعة :

ـ أنا آسف ، لم أتوقع أن تطول الزيارة هكذا . . لدي موعد عمل هام في القصر بعد ساعة .

سارعت جيما تقف في صفه علها ترضيه قليلاً :

ـ لن امانع . . فرأسي بدأ يؤلمني . . وسيأتي معنا دون دياغو فيما بعد لإكمال الزيارة .

غمز دون دياغو لها والمكر يلمع في عينيه :

ـ لدي اقتراح أفضل . . بما أن هيلين والصغيرة متشوقتان لاكمال الزيارة، أقتراح أن تذهبي مع راؤول بينما نبقى هنا . . وبهذا لن يخيب أمل أحد . موافقون ؟

انطلق راؤول بالسيارة من أبواب المصنع بسرعة المتسابق الذي يسعى للوصول إلى الهدف . وأخذ يطلق زمور سيارته بغضب وإلحاح في وجه أي سائق يقوده سوء طالعه أن يظهر في طريقه .

سارا على طريق ساحلية تتصاعد على كتف تلة مليئة باشجار الصنوبر، وإلى يمينها منظر مذهل للبحر من بعيد، ولم يكن هناك أثر للغضب في عينيه حين التفت إليها وتلاقت عيونهما :

ـ أنا مدين لك بالاعتذار . . أرجوك سامحيني لما أظهرته من غضب صامت لا مبرر له .

ـ لم أكن خائفة . . أحب السرعة . تعطيني إحساساً عظيماً بالحرية .

وكأنني الطير، كالصقر مثلاً يجوب السماء !

رد ببطء يصحح لها ما قالت :

ـ لا . . لست كالطير، أنت كسنجاب يبحث عن مكان يؤسس فيه لنفسه مكانه فوق أرض غريبة . . وأظن أنني الوحش الذي أظهر أمام عيناك الجميلتان شبح الخوف والقسوة .

ردت بخجل :

ـ لكنني لست خائفة منك راؤول .

ارتفع رأسه بحدة وكبرياء ، وكأنه أحس أنها استشفت منه ضعفاً . لكن حين تابعت النظر إليه بثبات، رافضة أن تخاف، ظهرت أول بوادر ذوبان البرود عن وجهه على شكل التواء، اتسع ليصبح ابتسامة :

ـ أصدقك أمادا . . ربما لو وجدت من الضروري أن أوجه غضبي عليك ثانية، لن أشعر أنني أرهب طفلة .

أفلتت منها ضحكة :

ـ هل حقاً جعلتك تشعر بهذا ؟ مسكين راؤول !

لكن الضحكة ماتت، حين مد يده يلامس انحناءة خدها . لمسته تلامس بشرتها برقة وكأنها لم تكن . . مع ذلك فقد تركت أثراً عميقاً في قلبها . وتابع كلامه :

ـ أنت طفلة متسامحة . . قليل من النساء يغضضن النظر عن الإهانات التي اعتذرت عنها . . اتظني أنني لو حاولت ثانية ساحصل منك على الغفران الكامل ؟

المودة الحميمة التي أحاطت بها لم تستطع تحملها . . شيء ما في أعماقها قال لها أن هذا لا يمكن أن يدوم، هذه اللحظات السحرية من التفاهم الفكري ، هذا الإحساس الثمين الغالي ، أنه لأول مرة يراها كامرأة . . وليس كطفلة .

- ماذا تريد مني حقا راؤول؟ كل ما في الأمر أنني لا أريد إغضابك . . لا أريد . . تجاوز حد أبعد مما ترغب في السماح به . . قد يساعدني لو تضع لي خطوط دليل كي يتوضح مركزي !

للحظات بدا غير واثق مما يقول . . منذ دقائق كان يمكنه أن يوضح على الفور ما هي واجباتها . . . لكن هناك تغير لا تعرف كنهه، حدث . . ومدهش لكليهما . وأحست أنه يحاول أن يكون منصفاً في رده :

- لأول وهلة، كان هدفي ينحصر في اراحة نفسي من حمل كارلا . . لكنني الآن . . الآن أدركت كم أن مثل هذا الدور ظالم بالنسبة لك . . في المستقبل يجب أن تشعري بحرية كاملة في طرح أي اقتراح تظنين أنه منصف بالنسبة لتربية كارلا وإدارة المنزل . . ساعطي تعليماتي للخدم أن أوامرك يجب أن تنفذ دون نقاش . . أما بالنسبة لك ولي . . سيبقى الوضع دون تبديل ، ما عدا أنك بدلاً أن تنظري إلى كرب عملك، أحس الآن أننا متفاهمان بما يكفي لنكمل الطريق كصديقين .

صديقان! فجأة بدت لها الكلمة كريهة . . . ! صداقة مع راؤول؟ ستكون صداقة فاترة، تقريباً لا وجود لها ، بالكاد تكون خطوة إلى الأمام من مرحلة الخادم والمخدوم . . لكنها أجبرت نفسها على إظهار السرور :

- هذا رائع لي . . شكراً لك على تفهمك .

خلال ما تبقى من الطريق، أخذ تفكيرها يتلاعب لعبة خطيرة في تصور كيف ستكون الحياة لو أن اهتمامه وتساهله نميا إلى عاطفة أكثر دواماً، وأكثر مطالبة .

الحب! الكلمة قدمت نفسها وكأنها الثلج فوق قلبها الدافىء . لكنها واجهت لحظة حقيقة، واجهت صدق واقع بقي مدفوناً تحت حجج

مختلفة، لم تقنعها ولا أقنعت الدون دياغو، حين حاولت تبرير قبولها لطلب راؤول بالزواج . . لكن هذا الواقع تجب مواجهته الآن . أحست بالراحة والسعادة لإدراكها أن القسم الذي أقسمته في الكنيسة والوعود التي قطعتها، لم تكن وليدة أكاذيب . . بل من حب عميق تحس به أي عروس تجاه عريسها . . .

حين وصلا القصر شاهدت سيارة سبور تقف أمام الباب فقالت :

- يبدو أن زائرك وصل راؤول .

لكنه لم يلق للسيارة بالاً وهو يدخل .

- عملنا لن يستغرق كثيراً . سأتخلص منه بسرعة، ثم إذا لم يكن صداعك مؤلماً، قد تنضمين لي للغداء .

- طبعاً . . سأفعل . ساصعد لأغير ملابسي .

حبها الذي استيقظ حديثاً كان غامراً بحيث لن تندهش لو شاهدت كلمة «أحبه» مرسومة على وجهها . . سارعت نحو المرآة، وتنهدت ارتياحاً، لا شيء يظهر على وجهها ما عدا الاحمرار .

كان ضيف راؤول على وشك المغادرة حين عادت إلى الطابق الأرضي . . وانقطع حديث الرجلين فجاة ليقول الضيف :

- يا إلهي . . جيما ! لقد بحثت عنك المنتجع كله !

- دايفد . . سيد باستير . . كم رائع أن أراك ثانية !

لكن راؤول سأل ببرود :

- أتعرف زوجتي سنيور ؟

- زوجتك !

- أجل . . أتعرفان بعضكما ؟

رفعت رأسها، غاضبة من دايفد، تكره عجرفة راؤول . .

- أمضيت مع كارلا ساعة ممتعة برفقته . . جرفنا البحر فوق طوافة،

وجاء بكل لطف لانقاذنا . . فتعارفنا .

التفت إليه ببرود جليدي :

ـ أنا شاكر لك سيد باستير لتخليصك زوجتي من نتيجة عملها الأحمق . ربما يمكن التساهل بما حدث نظراً لاختلاف جنسياتنا ولجهلك بعاداتنا . . وأرجو أن لا تحس بالإهانة لو حذرتك من تكرار ما حدث . . نساء بلادي لسن معتادات على مخالطة الغرباء . . ولولا أن زوجتي أميركية المولد . . لوجدت عملك مهيناً لها .

مضامين كلامه واضحة ، لم تجعل بشرة دايفد البيضاء وكأنها اللحم المحمر ، بل كان من الواضح كذلك أن جيما بحاجة إلى تدقيق في التفكير . . ما من شك الآن ، أن عرض صداقته قد انسحب . . ومعه الوعد بأن تكون حرة اليد مع كارلا ، وإدارة المنزل . ! ولم تكن تتعرف على صوتها حين قالت :

ـ لماذا لا تبقى معنا يومين دايفد ؟ بما أن زوجي لا يستطيع توفير وقت يكفي من عمله ، نبقى أنا وكارلا وحيدتين . . وسيكون من الرائع أحياء تعارفنا القصير .

حتى دايفد ، المليء بالثقة بنفسه ، أجفل . وهو يتردد ملأ القصر هدير مخيف ، تردد في الممرات ، يهز التماثيل فوق قواعدها ، ويحرك السلم ، ويثير رنين الأجراس . . كل عضلة في جسد جيما أجفلت وتصلبت للصوت ، واتجهت عيناها المتوسعتان إلى وجه راؤول وكأنها تتوقع أن ترى النار تخرج من فتحات أنفه . . وتقدم دايفد خطوة نحوها .

ـ لا تخافي جيما . . إذا أردتني حقاً أن أبقى فسأبقى ! .

لكن صوته تلاشى أمام صوت الرعد المرعب . . ولم تسمعه ، مع آخر نظرة يائسة إلى وجه راؤول ، ضمت يديها على اذنيها ، وركضت لتنجو . . من وجود ما كانت مقتنعة أنه تعبير الغضب وعدم الرضى من

الوحش المطلق العنان .

استمرت العاصفة طوال المساء . . أصوات الرعد كانت تهز أسس القصر ، وسيوف من البرق تشق الظلام ، تشكل زوايا غامضة . . والريح يمزق كل ما يوجد في الخارج يتنهد ويتأوه بين الممرات مديناً إعادة قوى مظلمة طال هجوعها إلى الحياة . كيف تجرأت وتحدت سلطته ؟ إنها مجرد موظفة عنده ، مع ذلك تجرأت على أن تدعو إلى منزله رجلاً تصادم معه لتوه ، ويهدد بالتصادم بعد .

استلقت هيلين تماماً فوق أريكة زرقاء كلون عينيها وأخذت تتشدق :

ـ يجب أن أعترف أنني شاكرة لهذه العاصفة التي أجبرتني على اطالة زيارتي . . لن يجرؤ رب عملي مهما كان صارماً أن يجبرني على سلوك طريق تسده السيول لأصل الفندق .

ابتسم راؤول :

ـ لكن ألا تعلمي أنني أمسك بالعوامل الطبيعة بين أصابعي ؟ افرقع باصبعيّ فاسبب البرق ! أحرك يدي فيحدث الرعد !

ضحك عالياً حين أطاع البرق والرعد أوامره . . سخريته أشعلت ذهول جيما أكثر . . ثم انحنى نحوها قاصداً الشرّ ، وهمس بصوت كالفحيح :

ـ نفخة صغيرة ترفع الريح بقوة وجنون لتدمر كل من يخالف إرادتي !

قفزت واقفة تصرخ حين انفتح الباب بقوة ، مرسلاً ريحاً باردة فوق وجهها المحترق . . وصاحت :

ـ توقف عن هذا !

كانت خائفة إلى درجة الهستيريا ، ثم انكمشت محرجة حين بدأ الجميع يضحك ، ويصفق استحساناً لأداءه الدامي الواقعي . .

www.elromancia.com

وابرزت هيلين مدى غبائها :

ـ حقاً يا سمراء بنية . . أنت ساذجة !

وجده دايفد كان يحس بمدى خوفها، وحين أجبرها ضعف ساقيها إلى السعي للراحة، مد يده ليجذبها إلى قربه يخفف من ارتجاف يديها بيديه . . ووجه نظرة كراهية إلى راؤول وهو يحاول تهدئتها :

ـ ليس من الجريمة إظهار المشاعر حبيبتي، الواقع أنه نوع مريح من التغيير، ليكتشف المرء ما هو مخبأ في أعماقه دون اخفاء حقيقة مشاعره كما يفعل من هم أدنى أخلاقاً .

كان يتعمد رفع صوته متحدياً وأكمل :

ـ أنت خلاصة نظرتي إلى المرأة المثالية . . . أنثوية بالكامل ، ومحبوبة جداً !

نظر إلى راؤول نظرة فولاذية، لكنه أصيب باحباط حين رد الكونت ببرود :

ـ أشفق عليك سنيور . . لماذا لا ينظر الناس إلى ما هو ممكن . . دائماً يسعون وراء المستحيل؟ على أي حال لا تكتئب، فأنا واثق أن هناك في مكان ما من العالم هناك نسخة ثانية من المثال الذي تسعى لتجده . . ووجدته متأخراً !

نحنحة الدون دياغو كانت إشارة لطلب الاسترخاء . . وكان المرء باستطاعته الإحساس بانخفاض غضب راؤول وهو يسير بخفة الفهد نحو هيلين، التي كان جسدها يكاد يذوب وكأنه دون عظام أمام ابتسامته . . فمررت جيما يدها فوق جبينها المبلل بالعرق، وأحست بالتعب الشديد، وكأنها كانت تقف منذ أسابيع . . وسمعت دياغو يسأل بأدب عن نوع عمل دايفد :

ـ أعمل في مجال السينما سنيور . . منتج . . أهتم أساساً بالوثائق . .

وهذا سبب مجيئي إلى الجزيرة . . فكهوف قصر تيمبيرا لها جمال اسطوري، مكلف أن أنقله إلى فيلم .

ـ وهل وافق راؤول ؟

ربت دايفد على جيبه لجهة الصدر :

ـ الاتفاق هنا . . موقع من الكونت نفسه منذ بضع ساعات .

ـ حسناً . . سنكتشف مدى قدرتك مع الوقت . . العديد من المحاولات جرت لالتقاط جمال الكهوف وما حولها . . لكن مع أنها جميلة، لم يتمكن أحد حتى الآن تجسيد هذا الجمال .

طوال الوقت كان راؤول يوجه نظرات نارية إلى جيما، وكأنه يحذرها من نار غضبه . . نار «الديابلو» أي الشيطان بنفسه! فوقفت لتتخلص من جو التوتر :

ـ أرجو عذري . . يجب أن أرى كارلا . . من عادتها أن لا تنام قبل أن أقبلها، وأتمنى لها ليلة سعيدة .

وقفت هيلين عن الأريكة :

ـ أتمانعين لو جئت معك ؟

ـ لا . . أبداً .

ليس من عادة هيلين هجر صحبة ثلاث رجال ساحرين لمرافقة امرأة وطفلة، اظهرا حتى الآن قلة اهتمام بمرافقتها . اكتشفت أن شكوكها محقة حين خرجت من غرفة الطفلة النائمة إلى الممر الخارجي بصمت حيث كانت هيلين تنتظرها، وسألتها :

ـ هل لي أن ألقي نظرة على غرفتك ؟

وتوجهت دون انتظار الرد إلى الباب المزخرف على بُعد قليل في الممر . . لكن جيما ثائرة أكثر من أن تستطيع التظاهر بالأدب، فصاحت :

ـ أفضّل أن لا تفعلي هذا الآن .

لكن هيلين كانت قد فتحت الباب ودخلت . . عيناها الجشعتان تستوعبان بسرعة الاطار العاجي واللؤلؤي للغرفة، محاولة تقييم الأشياء التي لا تقدر بثمن المنتشرة دونما ترتيب حول المهجع الزواجي . . . بلمعان الحسد، أخذت عيناها تجولان، مرة إلى السرير المنمق، ثم بسرعة إلى الباب المتصل بغرفة راؤول . وبدا أن المنظر أغاظها، فاستدارت لتقول :

ـ ماذا وراء كل هذا يا «سمراء بنية»؟ هل لجأت إلى الابتزاز؟ أم أنه اضطر لهذا بسبب اندفاع ضعف مؤقت؟ اضطر للزواج منك ليحمي اسمك الطيب الذكر ؟

السؤال الوقح الفج دفع بالدم إلى وجه جيما، ولم يعد هناك مجال للتظاهر بودّ الصداقة . . كراهية هيلين أصبحت ملموسة، بشعة، كريهة حاسدة . . وأحست بالإشمئزاز لقذارتها، وباحساس غثيان ردت بالقدر الكافي من الوقار :

ـ راؤول لن يسمح لنفسه بأن يجبره أحد . . تقدم بطلب يدي وقبلت . لأنني أحبه، وليس لأي سبب آخر .

ـ أصدق جزءاً من كلامك! واضح أنه طلبك للزواج . . ومن الطبيعي أن تقع فتاة غبية بلهاء مثلك في حبه . . لكن لا بد أن هناك أسباب أخرى . . حين اكتشفها ستحتاجين إلى الكثير من الحذر يا صديقتي القديمة . . فرجل له دماء حارة، يحتاج إلى شريكة تستأهل كثافة دمه . . سرعان ما سيسأم من عدم نضجك . وحين يحدث هذا، سأكون بالانتظار لأقدم إليه البديل الذي يفتقد إليه دون شك !

حين خرجت من الغرفة، وجدت جيما أنها لن تستطيع النزول ومواجهة أحد، والتصرف كأن شيئاً لم يحدث، وعلى أي حال، بوجود

هيلين تجذب إليها الأنظار، لن ينتبه أحد لغيابها .

كانت تزيل الأغطية عن الفراش استعداداً للنوم حين دخول راؤول . نظرت إليه تود لو تستطيع أن تسأله لماذا يغزو غرفتها دون مقدمات . لكنها فضلت الصمت . . وتقدم نحوها :

ـ بما أن الصغيرة نائمة، تظنين نفسك بحلّ من واجباتك الأخر ، وتبررين بهذا نومك ؟

ـ أجل . . ولماذا لا ؟

ـ وماذا عن واجباتك الأخرى؟ لقد أخذت على نفسك دور ربة المنزل ودعوت اثنين من أصدقاءه للبقاء في القصر ؟

ـ أنا لم أدع هيلين . . دون دياغو دعاها، وأنا آسفة بخصوص دايفد، لكنني ما كنت لاتصرف هكذا لولا أنك قفزت إلى استنتاجات خاطئة، واتهمتني بنقص في الأدب والاحتشام !

أشعل نار غضبها ببدئه بتقييم لها من قمة رأسها ببطء حتى الأسفل . . ثم قال ببرود :

ـ مهما كانت مبرراتك . . . يبقى الواقع أنك رضيت بتحمل أكثر مما تعرفين نفسك قادرة عليه حين قبلت راحتي من بعض سلطتي . لقد أصرّيت على مشاركتي السيطرة . . لذلك يجب أن أصرّ على تنفيذ واجباتك كزوجة والنزول حالاً للاهتمام بالضيوف !

استدارت مبتعدة عنه بخوف وقالت :

ـ حين تنتهي من السخرية مني سنيور . . أريدك أن تخرج من هنا .

المسافة التي أوجدتها بينهما امتلأت بخطوة واحدة :

ـ سترتدين ملابسك مجدداً، وتقدمين نفسك في الأسفل ، في الصالون، بعد خمس دقائق تماماً . وإلاّ . . ساضطر إلى مرافقتك بنفسي، وأنا لا أشك أنك ستجدين هذا تجربة غير سارّة !

www.elromancia.com

التوبيخ تركها تحس كأنه لسوط طفلة . . وأحست بهذا عاطفياً وجسدياً . . ! نظر إليها نظرة كحد السيف :

ـ هناك ربما، واجب زوجي آخر قد أطلبه . . يا صغيرتي . . لو حاولت مرة أخرى أن تعصي أوامري . . عرائس تيمبيرا كن جميعاً طاهرات . . . لكن أنت . يجب أن تطالبي بتسجيل نفسك في تاريخهن ، لبقاءك أطول مدة . . زوجة عذراء . على كل حال . . احذرك إذا رغبت أن تحافظي على هذا التمييز . لا تثيري غضبي أكثر! يجب أن لا تخافي من طغيان شخصية هيلين الشرسة عليك أيتها السنجاب الصغير . . فمزاياك المريحة تحمل جاذبية مدهشة للرجل الذي طالما عانى من تخمة الزخرفة التي تدور في دوائر لمجرد إخضاء الفتنة . . في الواقع عزيزتي، بطريقتك الهادئة، أنت مثيرة للاضطراب أكثر منهن . ولن أتردد في اكتشاف ما يكمن تحت هذا البرقع البارد . اتفهمين ما أعني ؟ . . جيد! .

توجه نحو الباب، يتركها لصراع عواطفها، ثم رفع معصمه لينظر إلى ساعته :

ـ خمس دقائق، ثم سافسر غيابك أنه تحد لي، ودعوة . .

ما كاد يقفل الباب حتى أخذت تتعثر في ارتداء ملابسها، حتى أن الأزرار رفضت أن تثبت في مكانها، والسحابات لم تستجب لأصابعها المرتجفة . لكنها تمكنت من انهاء كل شيء خلال الدقائق الثمينة .

أكان هناك ذرة من الحقيقة في كلامه؟ هل استطاعت ، دون وعي منها أن تشق طريقها إلى حياته، كشيء ثمين اشتهاه الآخرون، وأن يكون عبث دايفد معها وغزله لها أثارا الاهتمام في نفس راؤول ؟

خرجت مسرعة من الغرفة إلى الممر، وكادت تصطدم براؤول، الذي كان يستعد للدخول، مظهرها المرتبك فاجأه وأزال التجهم من

حول فمه . . وقال ساخراً :

ـ يا للأسف . . ! بدأت أحس بالإثارة .

وتظاهر بخيبة الأمل . . فتجنبت ذراعيه الممدودتين لتمر من أمامه، ورأسها مرفوع إلى الأعلى . لكنها في الداخل كانت ترغي وتزيد، مشمئزة من موجة الشوق القوية التي لم تجرؤ على تحليلها عن كثب، ولا التفكير بجذور بدايتها .

www.elromancia.com

٥.

زهرة الربيع

خلال الأسابيع التي سهلت للربيع افساح المجال للصيف بالتقدم، سارت الحياة بسرعة هادئة مدهشة . موسم العمل بدأ بالنسبة لهيلين، وأفواج السياح المتدفقين إلى الجزيرة أبقوها مشغولة دائماً. كذلك غاب دايفد عن الأنظار بعد أن غاص في العمل، بالكاد يصعد من الكهوف ليستنشق الهواء النظيف ثم يعود للغوص تحت الأرض مرة ثانية ينقل الجمال إلى الأفلام، والجو الأثري الذي بدأ يحدد نفسه على أنه مهمة شاقة التحقيق .

جزء من مهمتها . كان ردم الهوة ما بين الطفلة وعمها . إذا لم يكن على شكل صداقة فليكن على شكل تسامح بينهما .

تجرأت صباح يوم على الاقتراب منه، كان يتمتع بفطاره على الشرفة المسقوفة . يقرأ جريدة، ويبدو أنه لم يلاحظ محاولتها جذب اهتمامه . . لكنه فجأة قال :

ـ توقفي عن التنقل من قدم إلى أخرى، واجلسي لتناول فنجان قهوة معي .

ـ شكراً لك . . لقد أخذت القهوة باكراً .

ـ لا أصدق أنك تسعين إلي لمجرد الرفقة ؟

علمت أن صبره قد أخذ ينفذ حين أخذ ينقر صحنه بطرف السكين . . فابتلعت بصعوبة وقالت :

ـ أردت أن أطلب منك . . كارلا ترغب . . أنا أرغب . . .

ـ نعم ؟ . . ماذا ترغبين ؟

ـ أرغب في أن تأتي معنا إلى الشاطىء! أعلم أنك مشغول جداً، لكن يجب أن يكون هذا، اليوم، في أي وقت يناسبك .

ارتفع حاجباه .

ـ غريب، كان لديّ انطباع أن نساء منزلي يفضلنني بعيداً بدلاً من أن أكون مقرّباً . . فهل أنا مخطىء ؟

بحذر، أخذت تفتش عن رد دبلوماسي :

ـ كارلا لا تعرف السباحة، أتعلم هذا؟ وكنت اتساءل ما إذا كنت تمانع في أن تعلمها . . فليس هناك غيرك .

ـ آه . . . إذن أنا الملاذ الأخير! لقد حاولت كل الطرق وبحثت كل الإمكانيات قبل أن تلجئي إلي . . أنا آسف . . ليس لديّ الوقت . عليك أن تعلميها بنفسك .

ـ لكنني لا أعرف السباحة أيضاً !

هل من الغريب هكذا أن تكون لا تعرف السباحة . أطلق تنهيدة، ثم وقف، يمد يده ليجذبها واقفة . . إلى جانبه كانت تحس بصغر حجمها، ثم قال بابتسامة :

ـ حسن جداً . . يا سنجابي الصغير. إذا وافقت أن تكوني تلميذة كذلك . سأعلمكما السباحة معاً .

لكن كارلا لم تظهر الحماس بل قالت وفمها مكوّر :

www.elromancia.com

ـ لا اريد عمي راؤول أن يرافقنا . سيفسد علينا مرحنا . حتى أنه لا يحبني . . فلماذا يريد تعليمي السباحة ؟

ـ عمك رجل مشغول كارلا . لذلك فواقع أنه أعطاك وقتاً لتعليمك السباحة ليبرهن أنه يحبك . ويجب أن تتقبلي هذا العرض بامتنان ، فبهذا يمكنك مساعدته .

ـ وكيف أساعده ؟

حسناً . . تعرفين كم يعمل حتى وقت متأخر كل ليلة في مكتبته . ونادراً ما يحظى بساعة راحة خلال اليوم . . وقد نلعب لعبة صغيرة عليه ، بقبولنا عرضه قد نمنعه من العمل المرهق . لكنه لن يفعل هذا إلاّ إذا بدونا أننا يائستان لمن يساعدنا .

ـ اتعني أنه سيظن أنه يصنع معنا معروفاً ، بينما نكون نحن من يساعده ؟

ـ أجل . .

ـ فلنفعل هذا جيما . . لنخدع عمي !

بدا العجب على راؤول للترحيب الذي لاقاه من ابنة أخيه ، حين انضم إليهما بعد ساعة عند الشاطىء . . ولم تظهر أي تردد: اللعبة المثيرة على وشك أن تبدأ !

وبسعادة ركضت لتلقاه ، فحملها بين ذراعيه يطوحها عالياً فوق رأسه ، أحست جيما بفرح لا يوصف وهي تراقب الطلة الضاحكة تتمرغ بين ذراعي الرجل الذي انبسطت أساريره المتجهمة دوماً . ومن فوق رأس كارلا أخذ يفتش عن جيما ، يبتسم لها ببساطة جعلتها تنسى حيائها منه وسارعت إلى مساعدته . وقالت له :

ـ سأسابقك حتى البحر !

وبدأت تركض ، وثوب البحر «البيكيني» يزيد الهزال إلى مظهرها ،

وأطرافها الذهبية اللون . وصاحت كارلا :

ـ بسرعة . . بسرعة عمي ! يجب أن لا تتركها تكسب أركض . . أركض !

كارلا لا زالت بين ذراعيه تحثه على الركض ، لحق بجيما . التي أحست بالإثارة المجنونة حين تخطاها جسده القوي إلى البحر . . ولحقته إلى الماء ، تصطدم بالماء البارد الذي تركها مقطوعة الأنفاس . . لكن حين وقفت كوفئت على مجهودها برؤيتها لكارلا ، تشد ذراعيها حول عنق عمها تشهق من الفرحة :

ـ لقد ربحنا . . عمي . . ربحنا . . وكانت جيما تسبقنا بكثير !

للحظات طافت عيناه في اساريرها الضاحكة ، قبل أن يقول بجفاء :

ـ لست واثقاً من أن جيما لا تتمتع الآن بنصر خاص لها .

وأرسل إليها ابتسامة صاعقة قبل أن يتجه إلى مياه أعمق يحمل كارلا ، نصف مهتاجة ، نصف خائفة ، ليبدأ التعليم .

وجدت جيما الأمر سهلاً حين جاء دورها . . ونسيت خجلها لتتقبل لمسته الخفيفة الطبيعية على كتفيها وذراعيها وهو يصحح وضع جسدها في الماء ويدفعها إلى تحريك الذراعين . لكن حين أبدت جزعا في التقدم إلى العمق أكثر ، رمى رأسه إلى الخلف وضحك ، فأحست بأنها طفلة ، ومدللة .

كانت كل حركة ، وحصاة متبلورة تظهر من خلال المياه الصافية كالكريستال حتى أطراف أصابعها كانت بادية . . انتفاخ أمواج البحر كان كالوسائد له إغراءه الأزرق . . يختلف كثيراً ، وكثيراً جداً ، عن أمواج المحيط العارمة التي كانت تشاهدها على شواطىء بلادها ، تضرب الصخر الرمادي ، وتهس بجنون فوق الشواطىء الصخرية .

www.elromancia.com

أشارت إليه برأسها، كانت كارلا تبني قصراً من رمال ، قانعة بعد نجاح درسها الأول، كانت جيما تعلم أن عليها أن تطيع نصائح من برهن بشكل قاطع عن مهارته .

ـ حاولي العوم . استلقي على ظهرك، استرخي تماماً . . بينما أمسك رأسك بيدي . . مستعدة ؟

وكأنها في الجنة . . مثل أكليل من الزهر مرميّ فوق الأمواج . . جسدها أخذ يعلو ويهبط مع حركات البحر، ويد راؤول وسادة الطمأنينة، صوتها يهمس بالتشجيع، وهي مستلقية تتأمل رحابة السماء الناصعة ما عدا من الشمس وبضع غيمات .

ـ أنت رائعة هكذا ؟

جاء صوته من بعيد، فالتفتت نحوه . . لقد تركها ! استرخاؤها كان كاملاً حتى أنها لم تلاحظ سحب يده من تحت رأسها . . وتصاعد الذعر إلى حلقها، ففقدت توازنها وبدأت تتخبط في الماء . فتحت فمها لتصرخ، فاصمتها اندفاع الماء المالح إلى فمها .

ـ لا تقاوميني . . أنت سالمة آمنة . . أنا ممسك بك الآن !

وتمسكت به، تقاوم جهود، في إبصالها الشاطىء بشدها على عنقه بذراعيها . . حين كاد يختنق، وأخذا يغرقان معاً، تركت عنقه، فتمسكت في تلك اللحظة من الغطس ليبتعد عن قبضتها المميتة . بالكاد تنفس، حين عادت تتمسك به . . لكن قبل أن تقبض مجدداً على خناقه، أحست بضربة جعلت كل ما حولها ظلاماً .

ـ عزيزتي . . افتحي عينيك . . اتسمعين؟ يا إلهي ! يجب أن . . تقيأي . . بقدر ما ترغبين وبالقوة التي تستطيعين !

وهذا ما فعلته، بعنف تركها منهكة، غير قادرة على الاحتجاج حين حملها بين ذراعيه وبدأ السير بها إلى الكازا . هناك، استدعى الخدم

بسرعة، ليأخذنها لتستحم ، استدعاء الطبيب، العناية بكارلا التي اصيبت بالخوف الهستيري . فيما بعد، حين دخل راؤول غرفتها، كان يرافقه الطبيب . . الذي كانت أصابعه الباردة، مهدئة لأعصابها وهو يتفحصها، وسأله راؤول بحدة :

ـ حسناً دكتور . . كيف حالها ؟

ـ بقية اليوم في الفراش، وطعام خفيف، حتى الغد ستكون على أفضل حال .

ـ ماذا؟ دون أدوية؟ لا تعليمات خاصة؟ سامحني . . لكنني أرى رأياً آخر . .

هز الطبيب كتفيه، لكن ابتسامته تضيف دون ظهور غضب :

ـ طبعاً . . إذا رغبت . لكنني أؤكد لك أن هذا غير ضروري .

قالت جيما ساخطة :

ـ بكل تأكيد !

نظر راؤول إليها، فانكمشت، لم تكن لتظن يوماً أنها قد تثير اهتمامه إلى هذه الدرجة . . . وانحنى يتفرس في وجهها الصغير بعد خروج الطبيب ، سرعان ما انفتح الباب ثانية ودخلت كارلا كالعاصفة :

ـ جيما . . هل أنت حقا بخير؟ أيقول الطبيب الحقيقة ؟

التفتت إلى عمها الذي جلس على حافة السرير وقالت :

ـ ابتعد عن السرير عمي ! كيف تجرؤ على عدم التفكير براحة المريضة؟

نظر راؤول إلى كارلا عبر السرير، وبدأ عليه الغضب ونفاذ الصبر مع طفلة كانت تربيتها المتراخية سبباً في تصرفها الدائم بطريقة تخرج عن الأصول المقاييس المتوقعة من طفل اسباني . وأكملت متحدية :

ـ جيما صديقتي المميزة . وما حصل لها غلطتك . . بالكامل ! نحن لم

www.elromancia.com

نرغب في أن تعلمنا السباحة، كنا نتظاهر بهذا لأنها اقترحت أن نفعل. كنا نخدعك سيدي . . لكنني لا أريد أن ألعب هذه اللعبة مرة ثانية إذا كانت تعني أن تفسد بحضورك مرحنا. أكرهك . . وكذلك جيما تكرهك ! قولي له هذا جيما . . قولي له . . . !

لكن جيما لم تستطع أن تقول له شيئاً . . فقد خرج .

ولأيام بعدها لم يقترب أي منهم إلى الشاطىء، كارلا المكبوتة لم تكن تطالب . . فقد ويختها جيما بشدة بعد أن أغضبت عمها . ثم تقوقعت في صمت دلت الطفلة على مدى الضرر الذي تسببت به . . . لكن لا يمكن لوم كارلا لوحدها على الهوة ما بين جيما وراؤول، فخطتها الماكرة أعطت رد فعل مخالف، وكبرياء راؤول المتعجرفة دفعته إلى عزلة بعيدة عمّن تسبب بسوء التفاهم هذا، والذي لا يمكن لعذر أو شرح أن يردم الهوة التي حصلت .

استلزم جيما جهداً كبيراً لترسم ابتسامة على وجهها وتقول لكارلا :

ـ لنذهب إلى الشاطىء اليوم، فالجو حارّ في الداخل، ولا بد من وجود هواء قرب البحر .

ابتسمت الطفلة سعادة لكن جيما أحست بالرعب حين قالت كارلا :

ـ هل أحضر ثوب السباحة؟ لن أتأخر .

ـ لا ! لا عزيزتي . سنجلس نتشمس اليوم ربما في الغد . . .

كانتا مرتاحتين على الشاطىء لأكثر من نصف ساعة حين حذرتها حاستها السادسة بأنهما لم تعودا لوحدهما . . فتطلعت إلى فوق ، تحجب الشمس عن عينيها بيدها، واضطرت إلى الابتلاع حين أحس بأن قلبها وصل إلى حنجرتها، حين شاهدت راؤول . . يتقدم وكأنه أحد آلهة الشمس المهابة، ليقف شامخاً فوقها يرسل ظله على وجهها الذي بدا

ذابلاً خالياً من الحيوية .

ـ استعدت قواك ؟

ارتجفت، تدفن يديها في عمق الرمال لايقاف ارتجافهما :

ـ أجل . . شكراً لك .

ـ جيد . . إذن ستتابع الدرس .

أخفضت رأسها مضطربة :

ـ لا أريد المزيد . . شكراً لك . . أفضل أن لا أسبح .

هز رأسه وكأنه يتوقع هذا الرد :

ـ جئت اليوم لهذا السبب بالذات . إذا لم تدخلي الماء الآن . فسيتطور الخوف في داخلك، وسيطاردك لما تبقى من حياتك . ولا أستطيع التسامح بهذا . . لذلك يجب أن أصرّ أن ترتدي ثوب السباحة لتتابع الدروس . فوراً . كارلا . . ! اذهبي إلى الكازا واحضري ثوب سباحتك حبيبتي !

راقبتها جيما تسابق الريح . . ثم قالت بإصرار :

ـ لن أذهب . . لا يمكنك اجباري . .

ثم تذكرت شيئاً، فأخذت تتراجع تمد يدها كمن يدافع عن نفسه .

ـ راؤول . . دعني أشرح لك . . ذلك اليوم . . .

ـ لا تزعجي نفسك .

ـ ما فعلته كان لأجلك وأجل كارلا .

لكنه ابتعد عن مسمعها يركز نظره إلى قارب شراعي يبدو في الأفق . . وسرعان ما عادت كارلا ترتدي ثوب السباحة وتلوح بثوب جيما الأخضر فوق رأسها :

ـ لقد أتيت، جئت لك بالثوب !

قال لها باقتضاب :

ـ اسرعي قدر الإمكان . لدي وقت قصير فقط .

أخذ الخوف يغمرها بموجات باردة، ثم حارة، وهي تتعثر في ارتداء ثوبها، ثم خلعت الفستان قبل أن تتقدم لتنضم إليه، أسنانها تصطك، عيناها متسعتان قاتمتان وفمها مشدود طويل كخط رفيع من شدة الرعب. أرسلت نظرة استعطاف أخيرة إلى وجهه، ثم أغمضت عينيها، وتركته يقودها إلى الماء .

أصبح ينزل البحر كل يوم يدربها ويدرب كارلا، إلى أن تغلبتا تماماً على خوفهما، وتمكنت جيما من السباحة دون خوف بعد أن اقتنعت بأنه لن يكون مدفنها. لكن، من الغباء تصور حدوث أي تنازل من جهته . . كان يأتي ليكمل واجباً، أتمّه بكفاءة . . . مرة واحدة تجرأت أن تبدي امتنانها، لكنه قاطعها متعجرفاً :

ـ رسمياً، أنت جزء من عائلتي . . واعتبر نفسي مسؤولاً عنك .

أحست بالراحة، والألم معاً، حين أعلن رضاه عن تقدمهما . . . كانتا قد اعتادتا على أخذ سلة فيها ما لذ وطاب من خفيف المأكولات والشراب إلى الشاطىء . . لكن مع أن جيما ، وكلها أمل، كانت تحضر ما يكفي لثلاثة، إلاّ أنه كان دوماً يرفض الانضمام إليهما . . حتى اليوم الأخير .

كانت تصب حساء بارداً من الثوم والبصل، والطماطم ، والفليفلة الخضراء الحلوة والخيار . . وقدمت له . . فقبلها معلقاً :

ـ آه . . غاز باتشو ! لا بد أنك حزرت ما أفضّل !

وابتسمت لرضاه وقدمت له الخبز مع الزبدة واللحم المقدد . . بعدها الفراولة الطازجة ، المغطاة بطبقة من الكريما المثلجة، حافظت على تثليجها بواسطة «تيرموس» خاص .

بعدها، جاء دور الاسترضاء والخنوع . . . وكانت كارلا أول من

نام، متمددة تحت ظل شجرة . وراقبتها جيما مبتسمة، ثم استدارت ليحمرّ خداها بقوة حين اصطدمت بنظرته المتسائلة . . وقال بنعومة :

ـ ليس هناك نوم أجمل من نوم البراءة، اتنامين هكذا في براءتك يا طفلتي . أم أنك تحسين بالشوق وتنادين من يرافقك ويشارك أحلامك ؟

التهب جسدها . . مثل هذا الافتراض غريب عليها، كيف له أن يعرف بالليالي العديدة التي بقيت مستيقظة فيها في سريرها الزوجي المظلل الفخم، واسمه على شفتيها؟ لا يمكنه أن يعرف . . ولا يجب أن يخمّن !

ـ أنا أحاول أن لا أحلم سنيور! فالواقع أكثر إرضاء لي كما وجدت، مع أن الأحلام قد تجعلني أميرة، جميلة كالليل، ويأتي الصباح، فلا يتملقني نوره .

أمسك ذقنها باصابع قاسية :

ـ لكن ضوء النهار يمكن له أن يتملق صغيرتي . ! ربما يتملق الجمال التقليدي، بل ذلك النوع من الجمال الذي يحتاج إلى انعاش اصطناعي . . لكن ليس جمال الزهرة التي تنام بعيداً خلال ساعات الظلام وتستيقظ لتستقبل قبلة الشمس .

أخذت نبضاتها تتسارع بشكل خطير . . . لن تتمكن من احتمال لمسة منه، مع ذلك لم تستطع أن تبتعد . بل شهقت :

ـ اتشبهني بالزهرة سنيور؟ إذا كان الأمر كذلك، فأية زهرة من زهراتك الغريبة الاستوائية أشابه؟

تنهد :

ـ زرت بلادكم مرة، فقط لألعن جو العمل المحموم الذي يحيط بكل شيء عندكم . . لكن في يوم، وأنا أسير في الريف اكتشفت زهرة فاتنة، مارغريتا برّية صغيرة، زهرة خضراء الأوراق، على جذع نحيل،

www.elromancia.com

أوراقها بيضاء كالثلج ، فيها لطخات زهرية، وفي وسطها قلب سري، يُظهر الذهب حين يمسكها من تغمره السعادة .

وقف بسرعة ليجذبها معه، والتفت ذراعه على خصرها، ثم جذبها إليه حتى حركت انفاسه رموشها واسخنت خديها بدفئها. وامتد بينهما صمت متوتر . وكأن البحر توقف عن الهمس، والطيور طوت اجنحتها والأرض توقفت عن الدوران . . . والغرابة تمسكت بهذه اللوحة . وتمتم :

ـ قلب الذهب . . هل ستنامين بأمان أكثر خلال ساعات الظلام لو أكدت لك أن الوفاء بالأحلام سيأتي مع الفجر ؟

ـ وماذا عنك راؤول . . هل سترقد آمناً لمعرفتك أنك قادر على التلاعب بنا جميعاً إلى أي حالة قد يفكر بها دماغك ؟

ضحك، لكن دون مرح . . بمرارة . . والتوى فمه :

ـ هل يجب أن أرد على هذا صغيرتي . . والمعروف أن الشرير لا يجد الراحة أبداً؟

حين تركها وابتعد، واستأنف البحر همساته، وتحركت الطيور، وعاودت الأرض دورانها . . والشيء البارد الفارغ الذي عاشت عمراً كاملاً من الأمل في دقائق قليلة . . توقف كما كانت الأرض قد توقفت .

وصلت هيلين ذلك المساء . . . فهي ليست من النوع الذي يتردد في استغلال صداقة :

ـ راؤول، تلقينا العديد من الطلبات من السياح التواقين لزيارة قصر محلي قديم . . وتساءلت إذا كنت ستفكر بفتح أبواب الكازا لساعتين كل اسبوع . وسأتأكد من أقل ازعاج لك . وبالطبع سنأخذ الحيطة الكبرى بأن لا يُلمس شيء من محتويات القصر الثمينة .

كان الجميع يجلس في «الصالا» الرئيسية يشربون العصير قبل

العشاء . . ولمعت عينا راؤول بالاسترخاء وهو يقلب كوب العصير في يده . . بابتسامة تسامح أعلن :

ـ أنا واثق أنك تعرفين أن ما تطلبينه مستحيل . . مع ذلك فأنا مسرور لقدومك، ولو لتعطينا فقط سعادة صحبتك وأنت تتلقين الرفض .

ارتجف فم هيلين، ولم تتمكن من الرد على ابتسامته .

ـ أهذا هو ردك النهائي ؟

يتحرك دياغو قلقاً في مقعده، وقد أزعجه، كالعادة ، طريقة تعامل هيلين مع راؤول . . وسارع يقول بحزم :

ـ بكل تأكيد . عائلة تيمبيرا لا تستعرض ممتلكاتها لتسلي الناس !

رمقته هيلين نظرة كريهة . . لقد أصبح بالنسبة لها مستهلكاً . . قلة منفعته لها ظهرت منذ اللحظات الأولى، مما جعلها تصرف النظر عنه لصالح ابن اخته . ركزت قليلاً على راؤول ثم تنهدت كالمتأوهة :

ـ أظنك على حق . . كنت وقحة أكثر من اللازم لأطلب مثل هذا الطلب . . الأمر أنني . .

وتحشرج صوتها . . . ومسحت دمعة لمعت على رموشها . وقفزت واقفة، تلتفت لتركض هاربة كي لا يلاحظ أحد ضعفها :

ـ أرجو عذركم . . .

وقف راؤول فوراً على قدميه .

ـ ما الخطب عزيزتي . . ما الذي سبّب تكدرك ؟

ذهلت جيما للتمثيلية الرائعة التي قدمتها هيلين، وراقبتها تترنح، ورأت ذراعه تلتف على خصرها، والتفتت إليه، وجهها يكاد يلامس وجهه . . . وتمتمت :

ـ كنت حمقاء راؤوك . . واستحق كل عقاب . . أجد عملي متعباً . .

يتطلب مني طاقة أكبر مما لديّ . ربما لم أعتد بعد على الطقس الحار، أو ربما لست قوية كما أظن . على أي حال، في الأسبوع الماضي، أحسست بالتعب والعياء . حتى اضطررت للراحة ساعات، وحين اكتشف رب عملي هذا غضب . . وقال إذا كنت غير قادرة على الوفاء بعملي، فعليّ تركه . . لكنني احتاج للعمل . . راؤول .

وبدأت تبكي . . ثم أكملت بصوت متقطع :

ـ لهذا تجرأت على طلب هذا المعروف منك! فكرت أنني لو وفرت لرب عملي مثل هذا التنازل، فسيضطر إلى إعادة عملي لي . .

شهامته اندفعت على الفور :

ـ يا إلهي! سأتكلم مع هذا الرجل الذي يجرؤ على معاملتك بهذه القسوة. ساطرده من الجزيرة !

ـ لا . . راؤول . . لا يجب أن تتدخل . . . فله نفوذ كبير . . كلمة منه وأجد نفسي مطاردة مرفوضة من كل وكالة سياحية ! يجب أن تعدني أن لا تتفوه بكلمة مما قلته لك !

قال دون دياغو :

ـ يا للطفلة المسكينة !

انخداع دون دياغو بتمثيلية هيلين كان صدمة لجيما . . فاستدارت هيلين نحوه، متشوقة لأن تكسب عطف أي حليف من العائلة لها . . فسألها دون دياغو :

أليس هناك في عائلتك من يرغب في جعل نفسه مسؤولاً عن مصالحك ؟

ـ كم أتمنى لو أجيب بنعم على هذا السؤال سنيور . . . لكن لسوء الحظ ليس عندي أحد .

قال راؤول بغضب :

ـ هذا أمر وحشي! الفتيات الصغيرات يجب أن لا يسمح لهن بأن يجبن العالم دون مرافق! خاصة الصغيرات الخارجات حديثاً من المدرسة ولا يعرفن أن الحياة ستقدم لهن الحقيقة الخشنة بدلاً مما تعلمنه .

فكر قليلاً . . ثم عرض أمراً بكثير من التردد :

ـ زيارة القصر لا يمكن السماح بها . . لكن هناك أقبية قديمة واسعة في أسفل القصر، يقيم فيها العمال عادة حفلاتهم . . إذا ظننت أن السواح سيهتمون بها، نستطيع ترتيب زيارة اسبوعية . وسأجعل العمل يرتدون ثياباً تقليدية لتسلية الزوار . شريطة أن تدفعوا لهم مبلغاً لقاء هذا . كما أن زوجاتهم ستكن مسرورات في تقديم حفل شواء يمكن أن تقدم في الخارج بعيداً عن الكازا . إذا أعجبت الفكرة مخدومك ، أعلميني، وسأبدأ بالترتيبات الضرورية .

ـ تعجبه ؟ أوه راؤول . . سيطير فرحاً بها . . وساستعيد وظيفتي مجدداً . . . هذا مؤكد!

ابتسم :

ـ عظيم! إذا كان الأمر هكذا يمكن الآن أن نبدأ العشاء .

ولما تبقى من الأمسية دار الحديث حول موضوع فتح أقبية القصر للسواح . . . بعد العشاء اعتذر الدون دياغو ساخطاً، وغادر في وقت ابكر من المعتاد . . وأحست جيما بسخط مماثل، فحاولت التسلل إلى غرفتها .

ـ أين أنت ذاهبة طفلتي ؟

طفلتي! كم تتمنى أن لا يدعوها هكذا ، خاصة أمام هيلين .

ـ الوقت متأخر، ولم أعتقد أنك ستمانع لو ذهبت إلى الفراش .

ـ هذا صحيح . . واسف لابقائي لك صاحية حتى هذا الوقت . . هل تسمحي باستدعاء خادمة لاحضار معطف هيلين بينما أحضر

www.elromancia.com

السيارة أمام الباب لأوصلها ؟

ـ سأحضر المعطف بنفسي . لقد صرفت الخدم منذ ساعات .

كانت هيلين لوحدها حين عادت جيما . . وابتسمت هيلين :

ـ يجب عليك حقاً أن تجربي التأقلم مع وضعك الجديد بقوة أكثر عزيزتي . . الخدم مستخدمون للعمل قدر ما يلزم . وراؤول ليس معتاداً على القيام بالأعمال بنفسه ، ولا أظنه سيوافق على أن تفعل زوجته هذا . سمعت شائعات تقول أنه كان خاطباً لفتاة اميركية تركته لتتزوج شقيقه ألم تعرفي هذا ؟ كما سمعت ، راؤول كان يخيفها فبامكانه أن يكون مرعباً حين يشاء ، وكان أخوه على عكسه تماماً . فقررت أن تتزوجه بدلاً من أخيه المرعب . لكنها اكتشفت بعد الزواج أن راؤول يمسك بخيوط ثروة العائلة ، وأنها تركت هذه الثروة تتسلل من بين أصابعها . . من الغريب أن يلجأ إليك للمواساة من بين كل الناس ؟ أم أن الأمر ليس هكذا؟ كان يجب أن يبحث عمن تكون مختلفة تماماً . ومما سمعته أقول أن والدة كارلا كانت جميلة جداً .

ـ هل أنت جاهزة ؟

السؤال المنخفض الصوت فاجأ هيلين . . وكان من المستحيل أن تعرف كم سمع راؤول من كلامها . حين تجاوزته نحو السيارة تردد قليلاً وكأنه يريد قول شيء لجيما ، لكنه استدار بسرعة وتركها لتطلق لدموعها العنان . .

٦٠

اندفاع طفولي

تمت ترتيبات أقامة الحفل المحليّ ، واستقبال السواح للأسبوع القادم ، وأمضت هيلين العديد من الساعات مع راؤول قبل الحدث ، جو سعادتها كان واضحاً لاكتمال تنفيذ مخططها . . . ولاطلاق الحدث ، وافق راؤول أن يحضر الجميع الليلة الأولى ، بما فيهم كارلا التي كانت مهتاجة لفكرة البقاء صاحية حتى وقت متأخر .

لم تكن جيما تشاهد راؤول كثيراً في المدة الأخيرة ، ولا عرفت ما يتوقعه منها . . بطريقة ما لم تستطع أن تتصور شخصيته المهيبة تتقبل بسهولة الملابس المزركشة الخيالية ، لكن هيلين لا شك قادرة على التلاعب به حول اصبعها الصغير ، لذلك من الأفضل لجيما أن تتأكد أولاً ، قبل أن تورط نفسها بأي شيء متطرف .

ترددت وهي تتجه مع كارلا إلى غرفة الملابس القديمة . . غرفة المكتبة كانت مفتوحة جزئياً ، وصوت حفيف الورق كان يؤكد وجوده فيها . . . رفعت يدها لتمسك حاجز السلم الخشبي وتكمل طريقها ، لكن باب غرفة المكتبة انفتح ليظهر راؤول الذي كبح اندفاعه عند

www.elromancia.com

خروجه، وتوقف عند الباب، كان يحمل رزمة ورق، وبدا مستغرقاً في التفكير لكنه حين شاهد جيما ضاقت عيناه بحدة، فقالت :

ـ أيمكن أن تمنحني دقيقة من وقتك ؟

ـ كنت على وشك البحث عنك. البيانات المصورة التي ارسلت بطلبها وصلت، وأحب أن تنظري إليها وتنتقي ما تريدين .

حين بدا عليها عدم الفهم أكمل شارحاً :

ـ إنها الملابس الجديدة التي وعدتك بها . . طلبت من دار أزياء في مدريد ارسال كتيبات مصورة عن أفضل الأزياء . . . وأرسلوا لي تفاصيل عما لديهم . . ليس من عادة النساء نسيان مثل هذا !

ابتسم حتى أن حفرة عميقة ارتسمت على خديه . . فاضطرت إلى مقاومة توق لأن تمرر أصابعها على طولها . . واستجمعت شتاتها لتشكره :

ـ أنت كريم جداً . . كل ما لدي جديد . . ولقد اعطيتني الكثير حتى الآن . . .

أمسك يدها فجأة باصابع باردة وماتت الأنفاس في حلقها حين تلمس مكان الخاتم :

ـ أين خاتم الطهارة ؟

ـ لقد . . وضعته في مكان آمن . . . إنه واسع قليلاً، وحين ذكرت كم هو ثمين وقيّم لعائلتك لم أعد أجرؤ على ارتدائه إضافة إلى أنني . . لم أحس يوماً أنه لي، إن له تاريخاً قديماً من الصلات الأليفة مع زوجات وفيات مدللات، ولا يجب أن تمتلكه متطفلة .

ـ أهكذا تعتبرين نفسك . . متطفلة؟ لا عجب إذن أن من يحيط بك لا يعير أهمية لكونك زوجتي في وقت أنت نفسك مترددة في مواجهة هذا الواقع .

كلماته فتأت الجرح الذي تركته تعليقات هيلين المزدرية لها :

ـ المرأة لا تصبح زوجة عن طريق ارتداء خاتم . . وتبادل القسم ! دايفد كان يشك، وكذلك شكت هيلين أن زواجنا خدعة، فالزواج يعني الحب، والحب هو الحركة . . على الأشياء أن تستمر في الحدوث . . أنت تخاف من الحب راؤول . . تخاف معناه، غير قادر على اعطاء ولو جزء ضئيل منك لشخص آخر . . . وهذا بالضبط ما يتطلبه الحب! لفترة طويلة بقيت جزيرة . . رجل منفرد لنفسه . . . قطعت نفسك عن العالم وإشاعاته وكونت فكرة سيئة عن جيرانك، حتى أصبح هذا طبيعة ثابتة فيك، لا تفكر إلاّ بنفسك . رغباتك أنت . . . مشاعرك أنت . . ! فكيف يمكنك أن تنكر عليّ ما يعطيني التظاهر من راحة حين يكون مواجهة الواقع يعني القبول بواقع أنني متزوجة من مستبد لا إحساس له ؟

ما كان يمكن أن يجفل أكثر مما بدا في هذه اللحظات . خلال لحظات الصمت التي تلت كلامها، رغبت أن تهرب، لكن ثقل الخوف الذي شل حركتها منعها، ثم قال لها من بين أسنانه المشدودة غضباً :

ـ يا إلهي . . . أليس لديك شيء مقدس ؟ كيف تجرؤين على مناقشة حياتك الشخصية مع أصدقائك ؟

ـ لكنك لا تفهم . . . أنا لم أفعل هذا . .

على الفور أدركت أنها تبدد قوتها سدى ضد حواجز صلبة لا يمكن أن تلين . . فتخلت عن الأمل، وبشهقة إحباط هربت .

مجموعة المحتفلين في القصر، قررت الانتظار في الحديقة إلى حين وصول العربات القديمة تجرها الخيول محملة بالسواح قبل دخول الأقبية، الموجودة في برج قديم مبني على بعد من الكازا . كانت ليلة دافئة لذيذة، وكانوا متلهفين لرؤية أول رد فعل لزوارهم . دايفد،

الذي جذبه عن عمله وعد بأن يشاهد مادة جديدة قد تفيده في جمعه للوثائق في المستقبل، كان أول من لاحظ اقتراب العربات. فقال ممازحاً :

ـ تحضروا للغزو يا رفاق. أرجو أن لا ينسوا «البروتوكول» وهم في حضرة صاحبة الجلالة !

كانت جيما تتجنب النظر إلى راؤول منذ مواجهتهما في وقت سابق من تلك الأمسية. كان قد دخل غرفتها حين سمحت له بالدخول بعد أن قرع الباب، وسرعان ما حبس أنفاسه وقال لها :

ـ الليلة تبدين كما يجب للعروس أن تبدو، عزيزتي.. بريئة، طاهرة، غير مدركة لأي شيء حولها.. كان قلة تبصر مني أن لا انتبه إلى قلة إدراكك الظاهرة، هي دليل كاف لمن يرغب في السعي إليه، إنك لا تزالين طاهرة، وأن لا تقدم حصل بيننا. لكن، لحسن الحظ هذا الموقف يمكن اصلاحه بسهولة.. قريباً.. سيدتي الكونتيسة، ستنظر كل الجزيرة إليك وتقول : آه.. ها هي زوجة، زوجة محبوبة حقاً!

محبوبة حقاً! مجرد التفكير بما يعنيه كان يعني لها الكارثة. لذلك أبعدت كلامه عن تفكيرها، وحاولت تركيز اهتمامها على دايفد، الذي كانت نظراته لها البلسم لدماغها المحموم. لكن حتى هذا حرصت منه، حين استدعيت إلى جانب راؤول حين بدأت أفواج السياح تصل.. أصوات من مختلف الجنسيات كانت تختلط بالثارة وترقب والفرقة الموسيقية الاسبانية تعزف لحن الترحيب من الغيتارات التقليدية. وقدم الشراب على يد فتيات مبتسمات يرتدين التنانير الواسعة الملونة البراقة التقليدية فوقها المريلة، والبلوزات بالأكمام الواسعة والياقة المكشوفة، كان القمر المكتمل الضخم يلعب لعبة الاختباء ما بين غيوم كانت تعطي جواً من السحر على الحدائق، وأحس الزوار أنهم محاطون بجو

رومانسي ضمن موقع مظلل بالأشجار، وأمامهم البرج الضخم وجو القرون الوسطى، الذي يستدعي وجود بطل وبطلة وجدهما الجميع بسرعة في صورة الكونت والكونتيسة العروس الخجولة.

بالنسبة لجيما كان راؤول يبدو لها كأدونيس، أدونيس الصياد الذي يسعى وراء محبوبته عشتروت. أدونيس الذي مثّل الحب.. مثلما كان أدونيس، يبدو راؤول الآن.. المحب للصيد. صيد البشر، لكنه كان يضحك من الحب ويحتقره !

همس لها مبتسماً :

ـ يبدو أننا نجمي الاحتفال.. لذلك اقترح أن ننسى خلافاتنا ونتظاهر بالتمتع وبصحبة بعضنا هذه الليلة، على الأقل... ومن يعلم، قد تكتشفين بعد قليل أنني لست بعيداً عن مشاعر البشر كما تظنين !

أخفت ابتسامة وراء حجاب من الحرير المخرم كان يلف وجهها، وارضته بالرد :

ـ واضح، أنك في مزاج جيد للمتعة.. كل ما أرجوه أن أكون لم أنس بعد كيف أمرح !.

تحت رعايته المباشرة، توردت، كأنها وردة قمرية تعيش لفترة قصيرة دون تفكير بالغد.. وجود كارلا، هيلين ودايفد، تلاشى أمام الاهتمام الذي تلقته من راؤول. مرّ بها عبر بوابة خشبية ضخمة مغروسة في عمق جدار رمادي من الحجر الصخري.. بني منه البرج، ليدخلا الأقبية حيث كانت الطاولات الخشبية القديمة الطراز والمقاعد الطويلة منتظرة من يجلس عليها.. حين جلس الجميع، تقدم راؤول وجيما إلى الطاولة الرئيسية التي كان لها منظر رائع فوق فسحة مرتفعة من الأرضية مباشرة أمام ما أعد عل شكل مسرح لتقديم البرنامج. حول الجدران الخشنة

الجافة الكئيبة انتشر عشرات البراميل الخشبية، كل واحد منها يحمل بطاقة تعرّف بطرازه ونوع خشبه وأصل استخدامه. وسارعت فتيات بلباس تقليدي لخدمة الجميع.

وهما يفتتحان الرقص، ويتمايلان على أنغام موسيقى الغيتار، همس لها وهو يجذبها إليه:

ـ جائعة؟

ضمت نفسها إليه أكثر، سعيدة في تشجيع اعطاء الانطباع بأنها زوجة محبة:

ـ لا!

حين لامس وجهها بيده، أدارته ليلتقي راحة يده بالكامل فابتسم:

ـ طفلة عجيبة.. تتجاوبين مع أقل لمسة لطف بشكل أعمى، حتى أنني أصبحت أخاف عليك.

تمتمت ورأسها على كتفه:

ـ مما تخاف؟

أصيبت بالإرتجاف حين لامست شفتاه رأسها، قبل أن تختفيا في مكان ما خلف أذنها.

ـ السبب أن ليس الجميع يؤمن بالبراءة.. أحياناً عدم معرفة كيفية النفاق يفسر على أنه نوع من التشجيع.

ـ لكنك زوجي! فلماذا تخاف عليّ راؤول؟ أنا لست خائفة، أثق بك تماماً!

همس يمرر شفتيه على خدها ليترك أثراً لحرارتهما:

ـ أواثقة أنت؟ إذا كنت واثقة، فلا لزوم للتردد إذن في العودة معي إلى الكازا.. كارا.

رفعت رأسها بدفاع شجاع ضد التهديد.

ـ حسن جداً.

ربما آن الأوان لاكتشاف ما إذا كانت وعوده بالحب صحيحة...

كان القصر صامتاً.. كل الخدم اعطوا الإذن بحضور الاحتفال.. وتوقف راؤول عند أسفل السلم. ومد يده ليساعدها.. فأحست بخوف مفاجيء. وحين تحولت أنظارها منه إلى صف لوحات العائلة المعلقة على الجدران بدا لمخيلتها المتعبة أنهم جميعاً يبتسمون.. تلك الابتسامة الخبيثة لمن هم على وشك شهود سقوط فتاة تجرأت على انتهاك قوانينهم.. صلصة سيف راؤول القديم جعلها تستدير شاهقة، وأحست بموجة من الاتهام النفسي، حين أخذ بحركة مليئة بالمعنى يخلع سترته المبهرجة بالألوان، ويكل ببساطة يحل أزرار قميصه. وضاقت عيناه بكسل حين شاهد اللون يتصاعد ببطء إلى وجنتيها، لكن لم يكن هناك أي شفقة في صوته حين قال:

ـ لا حاجة لنا أن نقف هنا.. سنرتاح أكثر في الغرفة...

حاولت الابتعاد:

ـ لندخل إلى المطبخ لنأكل، أنا جائعة..

خطوتان قربتاه منها، ورفعها بين ذراعيه ليحملها عنوة إلى غرفتها. الضربة التي صدرت عن الباب وهو يركله بقدمه ليقفله، رن صداها في القصر كله، وكأنها ضحكات فارغة، تسببت بنقاط عرق فوق جبهتها.

صاحت لنفسها بصمت وهي تتذكر اتهامه لها بفضح علاقتهما أمام هيلين ودايفد: «يا إلهي! لم لا بد أنه يكرهني!».

انحنى فوقها ينظر إلى انعكاس صورته على دموع لم تحاول اخفائها:

ـ لا تبدين قلقة هكذا كارا.. كلنا يجب أن نختبر طعم الدموع يوماً.

انتزع الطرحة عن رأسها، فالقت رأسها بلطف على الوسائد، انتزع لها الحذاء، ثم عقد اللؤلؤ عن صدرها المضطرب. . حين بدأت أصابعه تعالج أزرار أكمامها قالت :

ـ لِمَ أنت غاضب هكذا مني راؤول ؟

ارتفع حاجب شيطاني :

ـ لست غاضباً عزيزتي. . . ما من رجل على وشك اتمام زواجه لديه مكان في قلبه للغضب .

ـ ليس لديك قلب !

كعصفور واقع في شبكة، ينتظر بعجز التقاط الصياد له، أغمضت عينيها حين هبط برأسه نحوها وسمعت من بعيد همسة :

ـ فمك الذي ما عرف الدنس يحث على ردود لأسئلة لا يجرؤ على طرحها. . تعالي وشاركيني ألف سرّ عسلي .

تصاعد احتجاج يائس أخير :

ـ لا أريد مشاركتك حقدك واحتقارك! أرجوك راؤول. . أرجوك. . انتظر . .

التوسل قضى عليه، قتله بطريقة معاقبة منتقمة. ما أن تحركت البرودة حول قلبها بحرارة رغبته حتى تمسكت بعفتها بحدة رافضة التجاوب مع نداء الدم المجنون المتسارع في عروقها المتزايد في حثه ومطالبته. . برودتها أغضبته، فاشتدت قبضته عليها إلى درجة الألم، المختلط بالرغبة حتى أصبحا واحداً .

في الوقت الذي أخذت مقاومتها تصل إلى نقطة التلاشي، سمعت صوتاً جارحاً يخرج من حنجرته، وهو يبعدها عنه بوحشية. . على الوسائد كان شعرها ينتشر برّاقاً، على عكس عينيها الداكنتين بالحيرة

والاتهام . ابتعد عنها وكأنه وجد نطرتها لا تحتمل. وسار إلى الباب . حيث استدار لينفس احتقان غضبه واحباطه .

وقال بوحشية :

ـ العطش لا تطفئه الطهارة الباردة. . كوني شاكرة لأنني أبعدت عن نفسي اندفاعاً طفولياً أحمقاً .

www.elromancia.com

٧٠

كهف الجزيرة

ساعة الفطار في اليوم التالي، كان دايفد موجوداً وكذلك هيلين بعد أن تلقت الإذن بالبقاء هناك للاشراف على التنظيفات الضرورية بعد ليلة رائعة ناجحة . كارلا كانت أول من لاحظ تردد جيما على باب غرفة الطعام . . كانت الشمس ترسل أشعتها المتسللة من بين الستائر على رأسه المنحني قريباً من رأس هيلين، الجالسة بقربه .

وصاحت كارلا :

ـ جيما . . هل أنت أفضل حالاً الآن ؟ قال عمي أنك غادرت باكراً ليلة أمس لأنك كنت متعبة :

وبخ راؤول الفتاة ببرود :

ـ كما شرحت لك أكثر من عشر مرات . . جيما تعبت فجأة واضطررت إلى اعادتها للنوم باكراً . . أرجوك اجلسي ودعيها تتناول فطارها دون ضجيج .

بنظرة كراهية، أطاعته كارلا . وجلست جيما . . وأكمل دايفد طعامه إلى أن أحس أنها ارتاحت، واعطاها المزيد من الوقت لتتكل

قطعة توست بالزبدة وتشرب بعض القهوة ثم سألها هامساً :

ـ ما القصة الحقيقية وراء اختفائك ليلة أمس . أم . . لا يجب أن أسأل ؟

وقعت السكين من يدها المرتجفة . بسرعة استعادتها تحس بارتفاع حاجب راؤول وابتسامة الرضى على وجه هيلين ، وردت بهمس مماثل :

ـ الأمر كما فسّره راؤول تماماً .

ـ تبدين مختلفة . . لست أدري كيف، لكن هناك شيء يراوغني في التعرف إليه في عينيك وفمك . . لهما نوعية غريبة تجعلني أكاد أجن من الفضول .

أتكون مشاعرها المشتتة ظاهرة للجميع؟ هل أن المشاعر المؤلمة التي عانتها قد تسببت بما لم تتسبب به الأماني؟ تعلم أنها تغيرت، لكنها لا تعرف إلى أي مدى . ليلة أمس دخلت فتاة بسيطة، غير معقدة إلى دن الدراغون، وخرجت منه امرأة . . أقل بساطة، أكثر معرفة، تكافح للتعامل مع قوقعة مريرة جديدة . . تحاول تعزيز مركزها بين أمواج غير متوقعة، أمواج من الرغبة كانت غريبة على جسدها .

فجأة قررت ببرود :

ـ أريد الذهاب معك إلى الكهوف دايفد . أيناسبك اليوم ؟

نظر دايفد إليها بحدة متسائلاً عن غياب قلة ثقتها بنفسها والتي تظهرها عادة في وجود زوجها . . قال من بين أسنانه متنهداً، مقرراً قبول التحدي :

ـ يا إلهي كم تغيرت! سأكون سعيداً لمرافقتك في أي وقت جيما . . وتعرفين هذا .

نزلت كارلا عن كرسيها متأكدة من الرد على طلبها : هل أجيء معكما! . . لكن جيما أوقفتها :

ـ لا عزيزتي . . أنا أحس بالتعب . . وبما أن عمك يصرّ على أنني بحاجة للراحة، فأنا واثقة أنه لن يمانع في تسليتك لما تبقى من اليوم . بينما اتمتع أنا بجولة في الكهوف .

فغرت هيلين فمها ذهولاً بطريقة كوميدية، حتى أن كارلا صمتت لهول ما سمعت، لكن جيما قابلت ارتفاع رأس راؤول المتعجرف دون اهتمام . حين لم يتغير تعابير وجهها قال :

ـ حسن جداً . . ربما هيلين مثل زوجتي تحب أن تبقى مشغولة . أتودين الانضمام إلينا وأنا اعطي دروساً اضافية بالسباحة لكارلا ؟

وقفت جيما ، تسيطر على نفسها تماماً، وقالت لدايفد :

ـ سأحضر ملابسي، لاقني في الخارج حين تكون مستعداً .

سارا بالسيارة عبر مزارع متوسطية مثالية، فوق طريق يحيط بها عن جانبيها أشجار اللوز المزهرة في كامل حلتها . بالتدريج تلاشت الأزهار الزهرية البيضاء العطرة أمام أشجار التين الكثيفة الأوراق، وهما يمران خلال قرية على كتف تلة ، مرا بطاحونة قديمة مجدّدة البناء، لها مراوح ضخمة وسقوف بارزة تحمي من الشمس، حولها أصحابها إلى مقهى ومكان راحة . . أكملا الطريق نزولاً نحو ميناء صغير مليء بالقوارب الهاجعة في حمى الصخور . على كتف الميناء، مسكن أبيض الجدران لا بد أن يكون منزل عائلة نبيلة، لكنه في الواقع مركز نادي يخوت فاخر، وفي قبالته مجموعة منازل ومحلات تجارية مقامة على كلا جانبي شارع ضيق يتصاعد بحدة من الميناء . ووعدها دايفد أن يتناولا الغداء في النادي وهما عائدان . . مشاعرها المشدودة كانت غير شاردة على تحمل أي نوع من الحديث، وفهم دايفد، ولم يتطفل لا بالسؤال ولا بالحديث . . وهكذا خرجت من السيارة وهي في حالة سعادة وراحة بال، لتدخل إلى قطعة أرض جرداء، تنظر حولها إلى أي إشارة تعطيها

أي دليل .

أمسك ذراعها ليقودها نحو ممر يقطع منحدراً صخرياً معشوشباً . . في البداية كانت الأرض مستوية تقريباً، ثم بدأت تنحدر بالتدريج إلى أن أصبح مدخل المنحدر بعيداً فوق رأسيهما، والممر أمامهما يصل إلى عتمة مخيفة وقال لها ويده تشتد على ذراعها :

ـ سيري على مهل . هناك مصباح داخل الكهف على ما أعتقد . .

تنهد بارتياح حين وصلت يده إلى عتلة، وبعد تكتكة حادة ، أضيء طريقهما بأنوار مخفية وراء تشكيلات من الصخور اللماعة المتلألئة، الذهبية الألوان . وأكمل :

ـ استخدم راؤول خبراء لتركيز الأضواء . . وأظن أن هذا اعطى ثماره . . أليس كذلك ؟

كانت جيما تتطلع إلى فوق نحو الجمال المختبىء . . مذهولة بالجو الجليل الفخامة داخل معبد الطبيعة الخاص . . كانت الرواسب الكلسية البلورية تتدلى من السقوف بضخامة مذهلة . . وكأنها رماح ضخمة من الصخر الذهبي تنقط الماء بلون العسل إلى برك مضاءة بشكل خفيّ لتبدو صافية كالكريستال الأزرق . من الأرض، كانت ترتفع أشكال أخرى تمثل الصنوبر والسنديان المتحجر . . غابة سفلية تخطف الأنفاس من الصخور المتحجرة، لم يزعجها أحد منذ آلاف السنين، ما عدا نقط الماء المنحدرة كدموع الحزانى المستوحشات، في رتل طويل كثيف، تحفر الجمال في الصخر وهي تتجه إلى البركة الكبيرة .

أشار دايفد بيده يقود نظرها نحو لوح حجري متعدد الألوان .

ـ أنظري كيف أن الضوء يبرز ألوان الحجر .

البرتقالي المجرد، والأصفر المجرح بالأحمر الداكن ، كانت تنتشر

فوق خلفية من الصخر الأبيض الشمعي . . واستدار ليشير إلى جهة أخرى : «وهناك !» ثم إلى أخرى : «كأنها الشراشف منشورة فوق الحبال لتجف !» . . وهمست مأخوذة :

ـ أمر لا يصدق !

أخذ الممر المحفور يتسع ليصبح كالمسرح . . خشبته عريضة متكونة من بحيرة زرقاء فوقها زورق وحيد يحمل رجلاً محنى الظهر . فابتسم دايفد :

ـ أجلسي هنا لحظات . . إنه مجرد تسلية لمصلحة السواح . لكن إذا شرحت له من أنت ، فأنا متأكد أنه سيقدم لك عرضاً فريداً .

لم تكن تعرف ما تتوقع بالضبط حين جلست تنتظر . فرفعت رأسها إلى فوق تتابع صفا من العواميد المعلقة ، ثم ارتجفت . . تتساءل كيف لهذا العالم من الأشياء المجمدة يمكن أن تتلاعب بأعصاب متفرج وحيد .

لم تدرك تماماً مدى توتر أعصابها إلاّ حين بدأت انغام الكمان تتهادى إليها فوق الماء . . وحين انضم إليها دايفد ، ارتاحا فوق مقعد حجري ، يتفرجان على العازف يسير في قاربه فوق البحيرة الزرقاء ، يعزف الموسيقى الجميلة الناعمة . . كانت ذراع دايفد تلتف على خصرها ، حين جذبها إليه ، انحنى رأسها المتعب على كتفه . فقال هامساً :

ـ شيء ما يقول لي أنك تعانين المتاعب ، عزيزتي .

ردت حالمة :

ـ هس . . ! لا تفسد السحر بالكلام .

بعد دقائق حالمة همس متنهداً :

ـ يا إلهي ! كم أتمنى لو أن نيلي تستطيع سماع هذا . . ! مثل هذه الموسيقى تحتاج لمن يشارك فيها بكامل روحه . . مثلك .

ـ نيلي ؟

ـ إنها فتاتي . سنتزوج حين أعود .

ابتسمت :

ـ ما أروع هذا ! وأنا سيعدة لك دايفد . . لا بد أن الحب هكذا أمر سماوي .

سألها بحدة :

ـ ألا تعرفين هذا ؟

ارتبكت لكنها أجابت بسرعة :

ـ طبعاً . . ألم اتزوج راؤول ؟

لكنه لاحظ تعاستها ، وقال :

ـ إذا احتجت يوماً أحداً . . دعيني أعرف جيدا . . عديني . .

وقفت ، تصرف اللحظة العاطفية بهزة كتف :

ـ لست طفلة . وسأشكل بيدي مصيري الخاص . . شكراً لك .

وضحكت ببرود . . لكن دايفد أدرك أن هناك قلباً منكسراً وراء لمعان الدفاع غير المكترث . . شيء ما . . أو شخص ما آلمها بعمق حتى الألم الجسدي . . وقال لها :

ـ فلنذهب للغداء !

ابتسمت :

ـ عظيم ! لكنني أحب أن أسبح قليلاً قبل الغداء .

ـ هناك الكثير من المحلات قرب الميناء . . والأكثر من هذا أن صديقاً لي عرض عليّ استخدام يخته ، فما رأيك؟ سنشتري ثوبين للسباحة ونسبح بعد الغداء في المياه العميقة .

ـ سنفعل هذا . . وإلى الجحيم بكل النتائج .

لساعة كاملة تمتعا بالغداء باسترخاء تام فوق تراس النادي ، ثم ،

وعلى مضض، تركا المطعم ليفتشا عن ثوبي سباحة ومنشفتين. واشتريا كذلك قبعتين للملاحة. واصرت على دفع ثمن القبعتين :

ـ أرجوك دايفد، أنت الشخص الوحيد الذي أحس أنني قادرة على شراء هدية له.. حتى ألعاب كارلا غالية الثمن ولا أستطيع شراءها.

التفسير البسيط أثّر به.. فقد كان يقول الكثير :

ـ حسناً.. أقبل لكن على شرط أن تدعيني أشتري لك تذكاراً ونحن عائدان.

ترددت قليلاً، تحاول الرفض دون أن تجرحه :

ـ أحب أن تشتري لي مروحة.

ـ وستحصلين على مروحة.. لكن من اختياري أنا.. إذا لم تمانعي.. فأنا حريص جداً حول الهدايا التي اشتريها لصديقاتي.

ادخلها إلى دكان صغير، أدهشها ما رأته في داخله من حليّ رائعة، وأكد لها مالكه أن كل زبائنه من السواح، وخاصة الاميركيين، يدفعون له ما يريد لأنهم يعرفون أن اسعاره أرخص بكثير من الأسعار حتى في بلادهم. ولكي تنتقي وجدت المهمة مستحيلة، لكن دايفد أشار الى مروحة أعجبته :

ـ ما رأيك بتلك..؟ إنها تشبهك بطريقة ما.. بيضاء شاحبة، نحيلة وجميلة.

تراجعت جيما إلى الوراء :

ـ لا! لا أريد اللؤلؤ ولا العاج لو سمحت.. سآخذ تلك المروحة الصغيرة الخضراء ذات الزهور الملونة.

حين تحولت شهقة البائع إلى نحنحة مؤدبة، ارتفع حاجبا دايفد، لكنه قال :

ـ سمعت السيدة، سنيور.. أعطنا المروحة الصغيرة.

حين غادرا المتجر، ترافقهما أفضل التمنيات، جيما تمسك بالمروحة تضمها إلى صدرها، تواقة لأن تفحصها عن قرب أكثر وتتمتع بجمالها، فهي أكثر هدية مثيرة تلقتها. والأولى من رجل، إذا استثنت هدايا راؤول، والتي كانت في طبيعتها أشياء موروثة عائلية، على سبيل الإعارة..

ثم جاء الابحار على اليخت، مغاير تماماً لأي شيء خبرته.. تجربة رائعة ممتعة.. سرعان ما ستصبح ذكرى شاحبة. لم تحتج إلى الكثير من الإقناع لتنضم إلى دايفد للعشاء... بعدها، وعلى تراس فندقه، رقصا، وتشاركا القهوة والحديث مع النزلاء من معارف دايفد وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل حين أوصلها إلى باب الكازا.. ضوء واحد كان مضاءً.. مكتبة راؤول. بنصف ابتسامة، انحنت تطبع قبلة خفيفة على خده، قبل أن تستدير وتركض بسرعة تصّعد السلمات القليلة لتدخل القصر، ودون نظرة خلفها، أخذت تقفز فوق السلم، تعلم أن راؤول ينتظر، ولم تتوقف إلاّ حين حصلت على الأمان داخل غرفتها.. وما أن أصبحت في الداخل.. حتى أدارت المفتاح في القفل، قفل باب الغرفة، والباب المشترك معاً.

٨٠

برهان الغفران :

بقيت جيما في اليوم التالي في غرفتها إلى أن تأكدت من خروج راؤول إلى المصنع، مغلقة اذنيها على نقيق كارلا مطالبة بالدخول، بقيت صامتة حتى يظن الجميع أنها نائمة. صحيح أن هذا تصرف جبان، لكن يجب أن تؤخر المواجهة مع راؤول لبضع ساعات على الأقل.

كنت الساعة قد تجاوزت العاشرة حين نزلت من غرفتها. وجيء لها بالقهوة والخبز المحمص إلى قاعة الطعام، بعد أن أكدت للخادمة أنها لا تريد شيئاً غير هذا، أنهت فطارها وخرجت تفتش عن كارلا. وجدتها في الحديقة تلعب الكرة مع الدون دياغو الذي أطلق تنهيدة ارتياح حين شاهدها وصاح :

ـ حمداً لله ! بقدر ما أحب صحبة هذه الفتاة، إلاّ أن حيويتها تتعبني ! استلميها عني أرجوك، بينما أسير لأريح عظامي العتيقة على أقرب مقعد.

ـ مسكين دياغو.. تبدو وكأنك ستقع !

انطلقت كارلا بضحك مرتفع تراقب جيما تساعد دون دياغو على

الوصول إلى المقعد، وقالت :

ـ أوه يا خالي.. أنت مضحك..! أتبقى معنا طوال اليوم ؟

ـ في الواقع جئت أدعوكم إلى الخارج.. بما أن جولة جيما في المصنع لم تتم، فقد نعود لزيارته.. فمشاهدة غرفة العرض مثيرة للاهتمام.

ـ شكراً لك دياغو.. لكن ليس اليوم. إذا كنت لا تمانع..

هز كتفيه :

ـ كما تشائين.. كنت أرغب في تسليتك في غياب راؤول. لكنني لن أضغط عليك، إذا لم تكوني راغبة.

ـ غياب راؤول ؟

ـ أجل، رحلته إلى «أريسيف» عاصمة الكناري. لا بد أنه ذكر لك هذا؟ فهو سيعود متأخراً.

ـ ربما ذكرها لي.. لكنني نسيت.

قالت كارلا تبدي الأسف :

ـ أحب المصنع. هناك الكثير اتفرج عليه. المرة الماضية سمحت لي السيدة هناك في وضع بعض الحليّ في العلب، وقالت أنها ستشحن على الفور إلى اميركا.

نظرت إليها جيما مبتسمة :

ـ إذن فلنرى إذا كانت قد شحنت أم لا.

حين وصلوا، كان العمل في أوجه.. فتجاوزوا البناء الرئيسي باتجاه غرفة العرض.. البعيدة عن المصنع. في الداخل كان المبنى معد ليشابه مخزناً للبيع، حاويات زجاجية وواجهات مماثلة، تعرض الحلي اللؤلؤية ذات الأوصاف والأحجام المختلفة. وابقت كارلا على دفق الحديث تجاوب معه الدون دياغو بطيبة خاطر كي يترك المجال لجيما في أن تركز على التمتع بالعديد من القطع المعروضة خلف حواجز الزجاج.

www.elromancia.com

التفتت جيما إلى الدون دياغو :

ـ أخبرني شيئاً عن اللؤلؤ دياغو، من يقرر ألوانها، ولماذا هناك الكثير من الألوان؟ حتى الآن أعرف أن اللؤلؤ له لون أبيض ؟

بتنهيدة بدأ يشرح لها، وإزدادت حماسته بازدياد اهتمامها .

ـ نحن نأخذ المثال من الطبيعة حين تقرر اللون . . كل منطقة يوجد فيها اللؤلؤ، تنتج لوناً خاصاً بها . أفضل أنواع اللؤلؤ الزهري والكريم، تنمو داخل صدفة صغيرة توجد في الخليج العربي، وهذه لها أرفع الأسعار بين اللؤلؤ الطبيعي . أما الفضية الكبيرة فهي تدعى «الشفاه الفضية» ولا توجد إلاّ في المياه الشمالية على ساحل اوستراليا . . اللؤلؤ الأسود والقاتم يوجد على ساحل المكسيك لجهة المحيط الهادىء أما الزهرية القاتمة فتوجد في محارات ضخمة على سواحل الهند الغربية . فالألوان، كما ترين، تؤثر عليها حرارة المياه، ونوع الحجارة التي تعيش فيها اللؤلؤة . إضافة إلى ظورف حياتها والطعام الذي تتناوله .

هزت جيما رأسها لبائعة مبتسمة، وانحنت فوق واجهة تلتقط «بروشاً» من تحت الزجاج، كانت من الذهب على شكل حورية بحر، بجسد ذهبي نحيل، ذنبها من الزمرد والماس الدقيق، واللؤلؤ يغطيها كالحراشف . . ثم أعادتها إلى مكانها مبتسمة تشكر البائعة، والتفتت إلى دون دياغو :

ـ لك معرفة واسعة بالموضوع عزيزي . . لم أكن أعلم أن اللؤلؤ مكتشف منذ قديم الزمان .

ـ بالتأكيد، فالأساطير الهندية عن خلق العالم تُظهر أن اللؤلؤ له علاقة بالحب واللطف . تقول الأسطورة، إن الله حين خلق الهواء والنار والأرض والماء، كل عنصر منها قدّم هدية . . الهواء قدّم قوس قزح ليكون هالة للسماء . . والنار قدمت البرق والشهب لتنير الطريق .

والأرض قدمت الزمرد والماس والياقوت لتزين العرش، والماء قدم اللؤلؤ ليكون زينة الجميع لذلك يعتقد أهل الشرق أن اللؤلؤ هبة الله .

صوت ما وصل إلى رأسها عبر استغراقها بما تسمع . . صدى من كابوس كانت تتجاهله، راجية أن يزول .

ـ سهرك حتى وقت متأخر ليلة أمس لم يتعبك كما دل عليه تأخرك على الفطار .

في الصوت حدة، وسخرية في كل كلمة . . إلى جانبها أجفل دون دياغو وتصلب، ثم استدار ليحيي ابن أخته :

ـ راؤول! كنت مخطئاً في الظن أنك اليوم تزور «أريسيف» ؟

ـ لم تكن مخطئاً . في آخر لحظة تأجل اجتماع العمل . . وحاولوا الاتصال بي قبل أن أغادر القصر صباحاً دون جدوى . . حين وصلت وعرفت، عدت أدراجي في الحال .

ـ ولماذا لم تبق لتناول الغداء؟ المسافة عبر كل هذه الجبال متعب دون الاضطرار إلى العودة في الحال دون راحة !

ـ لدي أعمال ملحة هنا أود انهاؤها بسرعة .

ـ إذن . . من الأفضل أن آخذ جيما والطفلة إلى القصر . فالحر يزداد، وجيما ليست معتادة عليه .

لراحة بال جيما، هز راؤول رأسه موافقاً على خطة دياغو. وبهذا تأجلت المواجهة المحتمة، والمتأكدة أنها ستحدث بينهما قبل بزوغ شمس يوم آخر .

ذلك المساء، ارسل خادمة، مع رسالة أنه ينتظرها في مكتبته . كانت قد تعشت باكراً مع كارلا، ثم أودعت الصغيرة الفراش وعادت لتستحم، وتحاول النوم في ساعة غير معتادة للأسبان، بسبب قيلولة بعد الظهر .

www.elromancia.com

كان مسترخياً في مقعد بذراعين رأسه يستند إلى المخمل الأزرق . . وقف حين دخلت، وتقدم إلى الطاولة ليصب لها فنجان قهوة . . لكنها تجاهلت الفنجان الذي وضعه على طاولة قريبة منها . وبقيت جالسة تحاول السيطرة على ارتجاف أوصالها . . ثم قال من عمق مقعده :

ـ تعلمين بالطبع . . أنني غاضب جداً . . وتعرفين السبب .

ـ أجل . . أعرف السبب . . أنت غاضب لأنني أمضيت طوال يوم أمس مع دايفد .

ـ طوال اليوم وطوال الليل تقريباً . وأنا لن أسمح بهذا . . اتسمعين؟ لن تلطخي اسمي بعد الآن بقضاء ساعات لوحدك برفقة رجل آخر !

ـ ولمَ لا بحق السماء . . وما الخطأ في رغبتي أن أكون مع صديق ! صديق شاركته الساعات الوحيدة السعيدة التي عرفتها منذ جئت إلى هذه الجزيرة !

ـ إذن، فلنشرب نخب صديقك الغائب .

ثارت ريبتها وسألت :

ـ ولماذا صديق «غائب»؟ كل ما أعرفه أنه لا يبعد كثيراً عن هنا .

رد ساخراً :

ـ هذا ما تعرفينه، لكنني أتصور أن صديقك الآن في طريقه إلى نيويورك . فلقد ابلغت شركته في وقت مبكر اليوم أنهم لو أرادوا إكمال العمل في الكهوف فعليهم استبداله على الفور، ولم يترددوا، وامروه أن يغادر على أول طائرة . ولو كان حكيماً، لن يطأ هذه الجزيرة ثانية !

نوعية عدالته المتوحشة كان صدمة لها . فهمست :

ـ كيف تستطيع هذا؟ عمله كان يعني الكثير له . . ليس من حقك حرمانه لمجرد الانتقام من ريبة لا أساس لها .

هز كتفيه دون اكتراث :

ـ بالنسبة لي، فليعمل في أي مكان ترسله شركته إليه ، ما عدا مكان واحد . . هنا ! .

وقفت عيناه على المروحة التي تحملها، كأنها الحجاب ضد الشر :

ـ من أين حصلت على هذه ؟

لم تجد سبباً للكذب :

ـ اشتراها دايفد لي بالأمس . هدية رمزية ليوم راضع .

انتزعها من يدها، فتحها، نظر إليها، ثم أغلقها :

ـ جاد، وذهب، وحرير مرسوم باليد، ورمزية ؟ يا الله؟ أي نوع من البلهاء تظنيني؟

أمام عينيها غير المصدقة، رمى المروحة على الأرض وأخذ يسحقها بمؤخرة حذاءه ليدمر جمالها الرقيق .

فصاحت به بجنون تركع على قدميها تحاول تخليص شيء من حطامها . . وقد مات آخر أمل في نفسها :

ـ أيها الوحش! أنا راحلة! زواجنا يجب أن يُلغى . . كنت حمقاء لأنني تركتك تقتني به .

ـ لم تكوني حمقاء بقدري . . عزيزتي . . حين اقنعت نفسي أن البراءة موجودة، مع أن قبولك السريع لفوائد هذا الزواج كانت تسخر مني . لقد اشتريتك . . اتذكرين ؟ وإلى أن يمر عليك وقت أفكر بأنه يكفي . . ستبقين هنا وتتابعي واجباتك التي استخدمتك لأجلها .

اشتريتك! وأجفلت من قساوة الكلمة :

ـ لن أبقى . . لو قررت أن أرحل فما من طريقة تستطيع فيها إيقافي !

صمت لحظات ثم قال بهدوء مخيف :

ـ إذا رحلت . . فسترحل كارلا كذلك . لقد تعبت من

www.elromancia.com

التعقيدات . . ومن متاعب النساء التي لا تنتهي . هناك مدرسة داخلية في اشبيلية تستقبلها على الفور . لذلك حين تقررين الرحيل دعيني أعرف لأدبر أمر نقلكما معاً إلى اسبانيا .

وترك الغرفة دون أن ينظر إليها . . وبقلب وأمل ممزقان قطعاً تحت ثقل تهديده، أخذت تنظر إلى بقايا المروحة بذهول . .

لأيام طويلة فيما بعد وجدت جيما سهولة في البقاء بعيدة عن طريق راؤول . كل صباح بعد الفطار كان يقود سيارته في اتجاه المصنع، ولا يعود إلاَّ في المساء بعد العشاء بوقت طويل . ومرت الأيام بنفس قلق الليالي . صحبة كارلا، وتعزية دون دياغو ساعداها قليلاً، لكن ليس بما يكفي لاراحة العبء الذي يزداد ثقلاً بمرور الأيام . الهوة بين الإثنين كانت واسعة وتزداد سعة . . . وقرر دون دياغو فعل شيء في هذا الأمر الواضح له . . كانت كارلا تلعب فوق ارجوحتها وجيما جالسة تحت ظل شجرة . فسألها :

ـ هل ذكر راؤول لك أن لديه منزل آخر في لانزاروت ؟

ـ لا . . لم يذكر هذا أبداً .

ـ إنه منزل جميل كانت تستخدمه أمه دائماً وهي حية . لكن في السنوات الأخيرة، تجاهله وهذا يقلقني . . ليس لأنني لا أثق بالخدم . فمدبرة المنزل وزوجها أمضيا حياتهما في خدمة العائلة . . لكن المنزل يحتاج إلى سكن ناس فيه ، وإلاَّ سيبقى بارداً لا حياة فيه .

ـ يا للأسف . . أرغب في رؤيته دياغو. أهذا ممكن ؟

ـ اتركي الأمر لي كارا . سأتحدث مع راؤول في المساء .

لم يذكر دون دياغو ما دار بينه وبين ابن اخته، لكن يبدو أن راؤول وافق، وبعد اسبوع كانوا في المنزل على الشاطىء الافريقي لجزر الكناري . التي بنيت أصلاً على يد نبلاء اسبانيا . في طريقهما إلى المنزل

مروا باجزاء من المدينة الساحلية لا تزال تحمل آثار القرون الماضية، شوارع ضيقة، قناطر حادة ، سقوف منحدرة، ثم ساحة بعيدة عن الشارع الرئيسي . ودخلت السيارة عبر بوابات حديدية انفتحت على وسعها لاستقبالهم .

غاص قلب جيما حين دخلت غرفة الاستقبال الفخمة . . الجدران مغطاة من الأرض حتى السقف بالسجاد الفاخر . . ثريات ضخمة تنعكس أضواءها على مرآة باطار مزخرف فوق مدفأة رخامية قديمة الطراز . كانت تتصور منزلاً أصغر، له غرف مريحة، وأثاث مستخدم . . مكان تستطيع فيه التخلص من ذكرياتها، والبدء من جديد . . لكنها وجدت أمامها كومة أفكار أخرى، ملفوفة بآثار الفخامة والثراء والنبل، تذكرها على الدوام بالرجل الذي تحاول دون نجاح أن تنساه .

أحبت كارلا البلدة، خاصة عرباتها التي تقودها الجياد، التي كانت تركبها عند كل فرصة تتاح لها . وأحبت المحلات الجميلة، والميناء المشغول دائماً، والمطار الذي أخذهم دون دياغو إلى مطعمه للغداء . . كان تواقاً لأن يجول بهم في لانزاروت، من الصعب التذكر أن جسده الطويل يدين بنحوله إلى عمره . . أحست جيما بالارتياح لقناعة كارلا بالوقوف على شرفة المطار ، تراقب الوافدين والمسافرين من كل الجنسيات . . بعد الغداء نزلوا من المطعم ليشقوا طريقهم عبر الجموع سعياً إلى إيجاد تاكسي، وكانت جيما على وشك استدعاء سيارة حين قال لها صوت مألوف بدد سكونها :

ـ لا تزعجي نفسك، ساوصلكم إلى حيث تريدون .

صاحت كارلا، نصف سعيدة، ونصف خائبة الأمل :

ـ عمي راؤول . . ظننتك لا زلت في القصر .

رد على كارلا . . لكن جيما أحست أن التفسير موجه لها :

ـ جئت إلى المطار لالتقي بصديق، لكن رحلته تأخرت، وهذا يعني أن أمامي على الأقل ثلاث ساعات قبل وصول طائرته .

فسارعت جيما للاعتذار :

ـ شكراً لك، لكننا لن نعود الآن إلى المنزل، لقد وعدت كارلا بزيارة الميناء .

ـ عظيم . . إصعدا . . سآخذكما إلى هناك .

نقلتهم السيارة بسرعة من المطار إلى لانزاروت ثم مرت بهم عبر الشارع الرئيس المكتظ بالمقاهي وقاعات التسلية إلى أن وصلت الميناء الهادىء القديم بخليجه الواسع الجميل . نزلت كارلا لتسبقهما راكضة . . ثم شاهدا جسدها النحيل يقف من بعيد ينتظرهما . . لكنه أشار لها بالعودة فعادت راكضة للتتوقف أمامه . وأخذت بالتذمر مستعدة للدفاع عن حقوقها :

ـ لماذا لا اسبقكما ؟

ـ ظننتك تفضلين رحلة على متن لؤلؤة الكناري ؟

وأشار إلى مركب تجاري يقبع في مياه الميناء .

ـ أهو حقاً لك عمي ؟

استدار يبتسم لها :

ـ بكل تأكيد، يا صغيرتي، وهل اجرؤ على ابعاده عن الشاطىء لو لم يكن لي ؟

صاحت به بصوت وأثارة طفلة :

ـ قد تفعل لو كنت قرصاناً كبيراً قاسياً وشجاعاً !

حين أرسل رأسه إلى الخلف وضحك، وجدت جيما نفسها مذهولة به . وخفق قلبها، فغرزت أظافرها في راحة يدها متذكرة أنه الرجل

الذي خنق كلمات الحب في حنجرتها وأدار ظهره للمحبة واللطف .

وانطلق بالمركب إلى خارج الخليج . إلى أن أصبحت الجزيرة كلها مجرد خط في الافق . ثم ادار الدفة بسرعة جعلت القارب يستدير بدائرة حادة دفعتهما للصراخ هولاً، وصاح لجيما فوق صوت المحرك :

ـ اترغبين في قيادتها قليلاً ؟

بسعادة، وقد أحاطها بذراعيه، أخذ يعطيها التعليمات عن استخدام الدفة . . وأحست بالرعب أولاً . لكن بيديه تقودان يديها فوق الدفة، وفمه على أذنها يعطيها التعليمات، أخذت تحس بقلبه يخفق على كتفها . . وفولاد صدره وذراعيه يأسرانها بينه وبين الدفة .

لم تكن مستعدة لشيء حين رفع يده عنها يمسح خصلة شعر عن وجهه، فالتوى المركب بحدة عن مساره فصرخت يائسة، وفي لمح البصر كان قد أجلس مسار المركب . وهي تتمسك به خوفاً، أخذ يضحك . . كم هو صغير مرح في ضحكته، وشاركتاه فيها .

بعد قليل أوقف المحرك وترك المركب يتجه نحو الشاطىء بينما كانوا يسترخون في مقاعدهم . . تحت نظرته المتفحصة أحست بتصاعد الدم إلى وجهها . . فاشاحت وجهها عنه ، وتقدمت كارلا تجلس على ركبتيه :

ـ أحبك اليوم عمي راؤول !

ابتسم :

ـ اليوم فقط يا صغيرتي؟ ليس بالأمس ولا في الغد ؟

مطت شفتيها مفكرة :

ـ هذا يتوقف . . فلأيام أمس كثيرة كنت في مزاج عبوس، جعل جيما تعيسة جداً . لكن لو أن كل غد سيكون مثل اليوم، سنحبك كثيراً . . أليس كذلك جيما ؟

www.elromancia.com

انتظرا ردها . . ولاحظ أنها لا تجد الكلمات المناسبة ، فساعدها على تجاوز احراجها :

ـ الكبار ليسوا متسامحين مثل الأطفال صغيرتي . . ألمهم عادة يكون أعمق ، ويصعب عليهم النسيان . كيف تظنين أن على رجل مهذب أن يسعى إلى اقناع سيدته بالغفران له؟ السيدة المذكورة لطيفة . . لكنها ترتاب كثيراً بنوايا السيد المهذب .

اتسعت عينا جيما وهي تلتقي بعينيه لتجد الرزانة فيهما بدل السخرية ، وعلمت أن كلماته هي أقرب ما يستطيع أن يقترب من الاعتذار . وبقيت عيناه على وجهها حتى حين قدمت كارلا النصيحة بعد تفكير طويل :

ـ أظن أن على السيد المهذب ، أن يجعل السيدة تحبه بأن يقدم لها الأزهار والحلوى ، ثم يدعوها للعشاء ، ولو وافقت ، يصرف كل ماله عليها ليبرهن على قيمة صداقتها .

بعد التواء فم دليل التسلية ، تظاهر راؤول أنه يفكر جدياً بكلام كارلا . . وقال :

ـ هذه فكرة رائعة ! ذكريني أن أشكرك بطريقة أكثر فعالية حين نمر بدكان حلوى .

ومروا في طريقهم إلى المنزل بدكان حلوى ، وأوقف السيارة ليشتري المكافئة الموعودة ، علبتان من الحلوى قدم لكل واحدة منهما علبة بكل وقار . . أوصلها إلى المنزل ، ثم أكمل طريقه إلى المطار ، وركضت كارلا لتري دون دياغو الهداية التي اشتراها لها عمها ، فأمسك راؤول بيد جيما يسألها بنعومة :

ـ اتظنين نصيحة الطفلة تستحق الاهتمام ؟

ابتعدت ببرود ، تتوق لأن تهرب لكن الكبرياء منعتها .

ـ ليس لدي فكرة عما تتحدث .

ـ أطلب منك العشاء معي هذه الليلة . هناك مطعم في المدينة ، اضافة إلى طعامه الرائع ، فيه حلبة رقص تعزف فيه فرقة موسيقية رائعة .

قفز الرفض فوراً إلى شفتيها ، لكنها لم تتفوه به . بل شهقت وقد أحست بقوة خفية تدفعها للقبول :

شكراً لك .

حين قرع باب غرفة نومها ذلك المساء ، انتظرت دخوله بثقة . كان يرتدي سترة سهرة بيضاء وبنطلون أحمر ضيق بلون التوت البري . وقدم لها باقة ورد ، ثم تراجع بضع خطوات يتطلع إليها بغموض ، لا يفوته شيء منها ، بدأ من شعرها الذهبي اللماع حتى أخمص قدميها المتوترتان . يغطي ما بينهما فستان أسود من الحرير ، وكأنه الحلم المحرّم . ضيق حتى الخصر ، ثم يتسع بالتدريج ليصبح كالهالة .

سرعان ما تطاير لهب الإعجاب من عينيه ، وبدا ذلك واضحاً في صوته وهو يساعدها لارتداء الروب :

ـ هيا بنا نذهب !

ببرود أخذ يرد تحيات الرجال الموجودين في المطعم بهزة رأس خفيفة ، بينما كانت جيما ترتجف حين وصلا طاولتهما . عدائية نظرة السيدات هناك أزعجتها جداً . . لكن راؤول بدا غير مهتم بأحد إطلاقاً . . بل جلس يدرس لائحة الطعام والشراب . وبدأت فرقة صغيرة بالعزف ، وكأنها أحست أن عليها تغطية حادث درامي مفاجيء . ووضع راؤول اللائحة من يده ليراقب وجهها المضطرب .

ـ امرحي . . عزيزتي . . فهولاء الكواسر يتمنون لو يقطعون لحمي . . وليس لحمك .

www.elromancia.com

فجأة فهمت، وفجأة كذلك أحست بالغضب.. رفضه لبحث الشائعات حول موت أخيه وزوجته، كانت إدانه كافية في نظر الارستقراطية المحلية. أرادت أن تهب لتدافع عنه.

- إنهم حمقى.. كلهم!

أحست برغم العتمة أنه يبتسم:

- لكنك كذلك تظنينني وحشاً.. ألم تجديني قاسياً دون قلب، وبارد تماماً؟

ردت بصوت رفيع:

- أجل، وجدتك قاسياً.. دون قلب، لكن لم تكن بارداً أبداً. أسوأ أعمالك ارتكبتها في صحوة الغضب... وتحملت الكثير بدافع الإحساس بذنب لم يكن لك يد فيه.. أنت لم تكن مسؤولاً عن موت والدي كارلا. أعرف هذا، وتعرفه أنت.. فلماذا تسمح لهذه الخرافة أن تنمو؟ الأصدقاء مجرد بشر، ويحتاجون إلى قوة تأكيدك لهم ليصححوا ضعفهم البشري.

تنفس بقوة ومال نحوها:

- مرتين اليوم صدمتني حكمة الصغار.. أولاً كارلا والآن أنت.. هذه الليلة أخذتها للمتعة، وليس للقلق.. تعالي صغيرتي، لنرقص قبل أن يصبح جبينك الشاب متغضن بشكل دائم من القلق المعقد أكثر مما تفهمينه في سنواتك الطرية العود.

كان الوقت متأخراً جداً، وهي متعبة إلى أقصى حد، حين عادا إلى المنزل في ساعات الليل الأخيرة. المنزل كان صامتاً. وهما يدخلان. حين توقفا قرب باب غرفتها همس لها:

- أكنت سعيدة هذه الليلة صغيرتي؟

سحره كان يغمرها لدرجة أن سمحت لذراعيها أن تحيطا بعنقه،

لكنها تذكرت انتقاده القديم لها بالطفولية، فقاومت، واستعانت بكل ذرة من وقارها لتقول:

- بشكل رائع.. شكراً لك. يجب أن تسعى لنصيحة كارلا مرة أخرى لو احتجت إلى من يدلك على طرق للحصول على الغفران.

اشتدت قبضته على خصرها، وكأنه يحاول عقابها على سخريتها.. لكنه أخفض رأسه إلى أن أصبح وجهه لا يبعد سوى سنتمتر واحد عن وجهها:

- ربما قبلة قد تبرهن على أنني نلت الغفران الكامل.

ترددت، وبقلب يخفق في صدرها بشدة، وكل عصب في جسدها ينتفض للمسته.. أحست أنه يتلاعب بنقص نضوجها، واثق أنه قادر على تحطيم محاولتها الظهور بقلة الإكتراث. لكنها مع ذلك لم تكن تقوى أن تجعله يخمّن كم أنه اقترب من النجاح في تحطيم مقاومتها.. رفعت وأراحت شفتيها الفتيتين على خده، بقبلة فيها كل الشوق والحنان، مع ذلك فيها كل الغموض لجعله في حيرة دائمة. حين ابتعدت، تنفس عميقاً، يبحث في وجهها عن أي أثر للاضطراب. لكنها نظرت إليه بكل وقار، تكبح شوقاً لترمي نفسها بين ذراعيه وتتوسل إليه أن يعطيها الحب الذي تحسه له.

وملأ نفسها انتصار مريرحين تراجع خطوة إلى الوراء وخطوط التوتر حول شفتيه.. يعتذر متصلباً.

- سامحيني لمزاجي المزعج عزيزتي.. كان يجب أن أدرك كم أنك لا زلت طفلة، تغلبت عليها المرأة منذ وقت قصير..

www.elromancia.com

٩٠

هدية القيصر

عاد الجميع إلى القصر بعد بضعة أيام، ابكر من الموعد المقرر بعد أن وجد الدون دياغو أن الحرارة على الشاطىء أكثر مما يحتمل. . بسعادة وضبوا حقائبهم، ودون اخبار أحد بموعد الرحيل أو الوصول، انطلقوا برحلة العودة .

كانت سيارة راؤول متوقفة أمام القصر . . لذلك ، بعد الاغتسال وتغيير الثياب نزلت جيما برفقة كارلا تبحثان عنه . لكنهما صدمتا حين وجدتاه مستلقياً باسترخاء أمام بركة السباح، وبصحبته هيلين، متمددة إلى جانبه على كرسي طويل، لا يستر جسدها سوى قطعتين صغيرتين مما يسمى بثوب سباحة بيكيني . . دهشته الواضحة لسماع اقتراب وقع أقدامهما اختلط مع تقطيبة هيلين المنزعجة، لتجعل جيما تحس أنها غير مرغوبة هنا .

لكن كارلا سارعت تقول بفرح :

ـ لقد عدنا عمي راؤول، لقد اشتقنا إليك. لقد مرحنا كثيراً معك في القارب، يجب أن تعيد الكرة حين يكون لديك الوقت الكافي. . هل

ستعلمني كيف أمسك بالدفة ؟ أعدك أن لا أخاف مثلما خافت جيما !

غرزت عينا هيلين وكأنها المخالب في وجه جيما الأحمر. لكن جيما كانت تجاهد لتبقى متذكرة أنها زوجة راؤول، ولها كل الحق في مشاركته أوقات راحته ومرحه، وهي تواجه غضب المرأة التي تلقت الكثير من الاهتمام ليظهر عليها مثل هذه الغيرة، وقالت ببرود :

ـ تعالي كارلا . . عمك مشغول الآن . . بإمكانك الحديث معه فيما بعد .

لكن كارلا رفضت الابتعاد، وشدت ذراعيها حول عنق عمها وقالت متوسلة :

ـ أرجوك عمي . . دعني أبقى معك، ولنتكلم أكثر عن السيدة التي لم تكن لطيفة معك . . فكرت بفكرة أخرى قد تساعدك في جعلها تحبك !

حين انفجر راؤول بالضحك، عرفت الطفلة أنها انتصرت لكنه كان انتصاراً جزئياً، فقد استقام ثم أعادها إلى ركبتيه .

ـ سيكون لنا نقاش خاص فيما بعد يا صغيرتي وإلاَّ فستشعر ضيفتنا بالملل.

حتى جمال مثل جمال هيلين قد ينقلب قبحاً في حالة الغضب . . في لحظة، انقلبت من وضع مفضل كرفيقة مفضلة إلى مجرد ضيفة، من الواجب مراعاة مشاعرها . .

وقفزت واقفة، ظهرها لراؤول كي لا يرى تجهم وجهها . ونظرت بغضب كريه إلى جيما، قبل أن ترمي بنفسها في مياه بركة السباحة، على الماء البارد يطفىء لهيب غضبها . لكنها تعمدت ضرب قدميها فوق الماء بقوة جعلت المياه تندفع نحو جيما لتبللها . . فشهقت، وصاحت كارلا من الاشفاق، واستدارت تواجه عمها ليزداد غضبها إلى أبعد من الاحتمال حين شاهدت ضحكة عريضة على وجهه . . ورفعت جيما

www.elromancia.com

رأسها بكبرياء وعادت إلى غرفتها لتغير ملابسها المبتلة .

تلك الليلة سعت هيلين إليها، بعد قرع لرفع العتب على باب غرفتها دخلت دون اذن ، في وقت كانت جيما ترتدي فستانها استعداداً للعشاء. عكست عيناها الشكوك وهي تستدير لتواجه هيلين، التي سارعت تقول حين لاحظت مدى اناقة ثيابها الجديدة :

ـ يا إلهي . . الفراشة بدأت بكل تأكيد تفتح جناحيها .

سألتها جيما ببرود وعجرفة :

ـ هناك شيء استطيع عمله لك ؟

ـ أوه . . حقاً «سمراء بنية» لا تستخدمي جو عجرفة الكونتيسة عليّ . . فتحت هذه الواجهة من الثقة بالنفس أنت لا زلت نكرة . . وستبقين دائماً !

اتسعت عينا هيلين حين ظهرت غمازة صغيرة غمازتان صغيرتان على زاويتي فم جيما . . وأحست بسهام خارقة تخرج من عيني المرأة التي انبثقت لتوها من بين رماد الفتاة الخجولة الجبانة غير الواثقة بنفسها . . وانفجر غضبها في سعي لمعرفة سبب التغيير :

ـ إذن تظنين نفسك في موقع حصين؟ لمجرد أنك شاركت رجلاً أوقاتاً متقطعة، لم يدفعه أدبه ليكشف لك الحمل الثقيل الذي كنت تمثلينه على رأسه ! حسناً «سمراء بنية» دعيني أنصحك . . راؤول ليس لك . لقد تزوجك ليوفر لابنة أخيه رفيقة لعب . ولو فتش الدنيا كلها لن يجد من هي أكثر مناسبة منك، أنت في سن يناسب، لكن في حجم جسدي وعقلي يناسب طفلة !

تنفست منتصرة حين شاهدت نظرة الصدمة على وجه جيما . . التي تمسكت بكبريائها المنهارة ، لا تريد التصديق أن راؤول قد اسرّ لهيلين بالأسباب الكامنة وراء زواجهما .

ـ هذا غير صحيح !

ابتسمت بمكر :

ـ ليس صحيحاً؟ أظنك تعرفين أنه صحيح . . صدقيني عزيزتي . من الأفضل لك مواجهة الواقع . . راؤول يحمل جزءاً من اللوم في هذا الزواج الكارثة . لكن بكل تأكيد يمكن عذره لو أخذت بعين الاعتبار حالته النفسية حين فكر بمثل هذه الخطوة الدرامية . على أي حال، لست أرى أنك خاسرة من هذا الاتفاق . . بكل تأكيد سيمنحك مبلغاً محترماً كتعويض، ونفقة !

ـ نفقة؟

ـ بكل تأكيد، فأنا أعرف راؤول . . سيصرّ على الدفع لك حتى بعد الطلاق .

ـ لن يكون هناك طلاق . . تحطم الزيجات أمر غير مسموح به في عائلة تيمبيرا . . إضافة إلى مشاعره الخاصة أمامه واجباته اتجاه مركزه . . حتى في هذه الأيام . . الطلاق كلمة قذرة عند الارستقراطيين في اسبانيا !

حدقت بها هيلين، دماغها معتاد على الانفلات والتساهل في المجتمعات العصرية بحيث لم تتفهم على الفور مثل هذه الوجهة النظر . لكنها مع ذلك ابتدعت ابتسامة شريرة . . شيء ما في عينيها جعل جيما ترتجف . . كان فيهما جنون التعصب، جنون من لا تعترف أبداً بالهزيمة . وقالت هيلين بخبث شرير :

ـ هناك أكثر من طريقة لسلخ جلد القطة !

خرجتا معاً بصمت، لكن حين وصلتا أمام غرفة راؤول، وقفتا فجأة لظهوره، نظرته إلى جسدها النحيل كان كلمة محسوسة . . ثم تلاشت تلك النظرة حين قطب . . مهما كانت أوامره الآن فلن تستجيب!

www.elromancia.com

رفعت ذقنها متحدية ، فرفع حاجباه، لكنه أحرجها بتوجيه كلامه إلى هيلين :

ـ اتمانعين في اكمال طريقك لوحدك؟ دون دياغو سيكون منتظراً في الصالون لوحده . . وسننضم إليكما، جيما وإنا ، قبل العشاء بقليل .

بدلاً من اظهار الغضب ابتسمت هيلين بمكر ، وكأنها تتفهم ما يريد، ونظرت إلى جيما وكأنها تقول : «استفيدي من يومك هذا قدر ما استطعت . . فالغد لي ! » .

بدت جيما هادئة وهي تدخل غرفته، لكنه هدوء التخدير . . تجمد مبارك للأحاسيس كانت تتمنى أن يستمر لما يكفي لتمر بالمحنة القادمة! اقفل الباب واستدار إليها : .

ـ جيما ! هناك شيء كان يجب أن أشرحه لك . . تلك الليلة في لانزاروت . . بدأت أرتاب . . ظننت . .

صمت ليتقدم نحوها ويرفع ذقنها بأطراف أصابعه :

ـ هل أحسست بتغيير ولو بسيط في قلبك تلك الأمسية ؟

لوحدها ما كانت استطاعت تحمل الإذلال الذي سببته كلماته. هيلين مهدت الطريق أمام طرقه هذا الموضوع . . من مكان ما، وجدت الشجاعة لتقابل عينيه بحاجبين مرتفعين، وابتسامة رسمت فيها قليلاً من السخرية وهي تتمتم :

ـ صعب أن يكون تغييراً في القلب . . اعترف بلحظة ضعف ذلك المساء . . لكنه ضعف بسيط . على أي حال راؤول، أمسية سعيدة كتلك يمكن أن تجعل أي امرأة متسامحة أمام رجل فاتن .

قطب منخفضاً رأسه :

ـ اتلمحين أنك استخدمت مرحك تلك الأمسية كترياق . . أو مضاد للتوتر . . ضد الكراهية التي أحسست بها بصحبتي ؟

لولا كلام هيلين، لآمنت جيما أن الألم مدفون في كلماته . حتى أنها كانت ستحس بالإشفاق على الرجل الذي أهانت له كرامته . . لكنها فهمت أن مثل هذه الدلائل هي مجرد إدعاء مزيف لمجرد غرض في نفسه . . راؤول يشتهي هيلين . . وهيلين تريده . . . لكن عروساً غير مرغوب فيها تقف بينهما . . وسألته فجأة :

ـ بأية سرعة يمكن لدعوى إبطال زواج أن تترتب ؟

ارتفع رأسه بحدة، واضح أنه ذهل بما خمنته من أفكاره ثم طغى على وجهه لون أحمر قاتم، لكن سرعان ما تلاشى . . فكررت :

ـ بأية سرعة ؟

رد بعد تفكير :

ـ هل تحبين دايفد؟ أهذا تريدين التحرر؟ كي تتزوجي منه ؟

خانتها الكلمات. ونسيت الدموع التي بدأت تتسلل على خديها. بلطف مزّق قلبها، أخذ راؤول يلاحق ممر الدمعات ليلتقطها على أطراف أصابعه . . تسللت يداه إلى كتفيها، وجذبها إليه، يشد جسدها المرتجف بين ذراعيه . ومن فوق رأسها سمعته يتنهد :

ـ مهما كان في مقدوري أن أمنحك اياه سافعل يا صغيرتي . . سعادتك المستقبلية هي أقصى اهتمامي .

صدقه، وتعابيره المخلصة لم تكن لتصدق . . لكن، سرعان ما أبعدها عنه، وكأنما أحس بسخونة ملمسها، وهو يبتعد أخذت تتساءل عن سبب انحناء رأسه المتكبر . فتح درجاً في مكتبته، وأخرج علبة غريبة الشكل وقال مبتسماً :

ـ إنها فكرة كارلا . هدية صغيرة تعبير عن ندمي على غضبي غير المبرر .

أخذت العلبة البيضاوية الشكل منه . . رباط ذهبي رفيع كان يغري

بالاستكشاف . . حين فتحتها كان إلى جانبها ليسمع شهقتها الخفيفة .

في الداخل شكل بيضة، مكونة من زخرف ناعم موضوعة فوق شريط عريض من الذهب مرصعة بالألماس، يزين سطحها أوراق صغيرة من الجاد الأخضر القاتم يحتوي في داخله على زهرات مرغريت صغيرة، كل ورقة من زهرتها لؤلؤة بيضاء لا شائبة فيها، كل قلب لها ، الماسة ذهبية تلمع بالأنوار .

ـ إنها جوهرة «بيضة الفصح» أمر بصنعها، قيصر روسيا هدية للقيصرة . . اضغطي على جانبيها .

بأصابع مرتجفة ضغط، خائفة من مجرد ملمس القطعة الفنية الدقيقة . ثم أطلقت شهقة فرح حين ارتفع الجزء الأعلى من البيضة ليفسح المجال لغصنين محفورين، كل منهما يحمل اطاراً لصورة مصغرة أحدهما تحمل صورة وجه كارلا، بينما الأخرى فارغة وقال راؤول :

ـ اختارت القيصرة صورة زوجها لتضعها مع صورة أكبر ابنائها .

الفراغ هناك، كان دليلاً على فراغ حياتها من دونه . . حتى صورته لن تملأ ذلك الفراغ الذي تحس به في قلبها . وهمست مذهولة :

ـ لا بد أنها غالية الثمن .

ـ صحيح . . لكن شراءها لم يكلفني كل مالي . . كما اقترحت كارلا .

ـ لن آخذها !

تراجع مجفلاً . . حين بدا عليه الغضب أحست بسعادة مريرة لتخليه عن الحلاوة التي تبناها . لقد اعتادت على الخصام مع الكونت المتسلط، ومع أن انتصاراتها معه كانت قليلة، إلاّ أنها كانت تحس بالمنافسة مع غضبه أكثر مما تحسها مع رقته المذيبة لإرادتها .

لكنها لم تكن متحضرة للتهجم العدائي من قبضتيه على كتفيها، ولا

لهذّته القوية التي طالها إلى أن صرخت :

ـ أيها الوحش السيىء الطباع !

ـ تنكرين أي تغير في قلبك؟ لكن هناك تغيير، مع أنه ليس الذي أريد . . أنا أكره برودتك، تصرفاتك المتحفظة . . لكنك لم تكوني من قبل متباعدة هكذا !

ردت بشراسة :

ـ كلامك متناقض سنيور! في البداية كنت تتذمر من طفوليتي . . . وأنت الآن توبخني على نضجي . ! هل أنت آسف لهذه الدرجة على أنني كبرت دون إذن منك ؟ أحببت هذا أم لا . . لا يوجود الآن طفلة في القصر سوى كارلا !

رفع رأسه يبتسم ابتسامة الشيطان نفسه، بينما كان ينظر إلى جسدها النحيل بازدراء . . بسخرية أمسك بياقة فستانها باصبعه .

ـ إخلعيه يا صغيرة . فمع ادعاءك بأنك كبرت فلا زلت غير مستعدة بعد للوفاء بالوعود التي يقدمها من يريد ارتداء مثل هذا الفستان . !

www.elromancia.com

١٠

هرير الدراغون

في الصباح التالي، سافر راؤول في رحلة عمله إلى لانزاروت، مصطحباً معه الدون دياغو. . . كارلا . . لم تكن قد زارت الكهوف من قبل . . وللعجب . . عرضت هيلين أن تصحبها . . كن جالسات في غرفة الافطار، تتناول كارلا كوب الحليب، بينما تشرب الكبيرتان قهوتهما . . وقالت كارلا بلطف :

ـ أيمكن أن نزور الكهوف جيما ؟

تغضن جبين جيما . رحلتها إلى الكهف كانت ممتعة لأنها كانت برفقة شخص محدد . بينما زيارتها اليوم ستعني التمشي بكسل وراء صف طويل من السواح المتلهفين لالتقاط الصور، الأمر الذي سيفسد وإلى الأبد ذكرياتها عن زيارتها الأولى . . لاحظت هيلين التردد ، فتدخلت :

ـ مجموعة من شركتي السياحية سيزور الكهوف اليوم . ولقد كلفت بمرافقتهم . إذا أحببت، لنلتقى في «بورتو مالبايس» حيث تنضم كارلا للمجموعة، بينما تتمتعين أنت بوقتك في زيارة المحلات .

كان العرض مغرياً . . مع ذلك ترددت جيما . . هيلين لا تقدم عرضاً إلاَّ في خدمة مآربها الخاصة . . ومع أن لا دوافع ظاهرة وراء العرض، إلاَّ أن الريبة كانت شديدة . . لكن القرار خرج من يدها حين صاحت كارلا :

ـ أوه . . أجل . . أجل . . أرجوك! لو انتظرت يوماً آخر فسأموت قهراً !

حين عادت هيلين إلى عملها، كان موعد لقائهما قد تحدد . جيما وكارلا سيلتقيان بفوج السياح في «بورتو مالبايس» الذي لا يبعد كثيراً عن طريق القصر . . وهكذا قررت جيما تحضير غداء نزهة، وخرجتا إلى الطريق العام لتأخذا أحد الباصات المحلية توصلهما إلى القرية التي زارتها من قبل مع دايفد .

كانت رحلة شديدة الحرارة، ومغبرة، لكنها تحولت إلى ممتعة باظهار القرويين سعادتهم بالشرف الذي أحسوا به لمرافقة زوجة المركيز وابنة أخيه لهم . وتحدثت كارلا إلى الجميع دون استثناء . تشرح لهم ما تنتظر من رحلتها اليوم وتستمع بمرح لقصص المغامرات التي تثار عادة حول الكهوف الغامضة . . حين توقف الباص، ودعتا بمضض القرويين اللطفاء وانطلقتا إلى الميناء حيث تناولتا الطعام الذي جاءتا به معهما . قبل تمضية الساعات الباقية للموعد مع هيلين في التسكع في الشوارع الضيقة القديمة ، ومراقبة القوارب تتصارع لأخذ مكان لها في الميناء المزدحم .

كانتا تجلسان على جدار الميناء، وساحة القرية خلفهما حين نظرت جيما من فوق كتفها لترى العربات التي تحمل اسم الشركة التي تعمل فيها هيلين قد وصلت . فقالت :

ـ هيلين وصلت حبيبتي . . هيا لا يجب أن نتركها تنتظر .

لكنها لم تتفوه بأي اعتراض أو تشجيع وهي تعطي الصغيرة لهيلين . . وهي تراقبها تسير خلف صف السواح . كادت تستدعيها ثانية ، لكن غلبها إحساس آخر كان يغمرها طوال اليوم . . إحساس بحاجتها إلى العزلة لتتمكن من التفكير ، التخطيط ، وربما للبكاء قليلاً .

ببطء عادت إلى موقع في الميناء محمي وراء أكوام من الحبال ، ستحميها دون شك من أعين الفضوليين . في الجهة المقابلة للميناء ، وفي مواجهتها تماماً ، كان نادي اليخوت حيث تناولت ودايفد الغداء ، وهناك في أسفله ، يتمايل فوق المياه ، تعرفت على المركب الذي استعاره ليزيد من سعادة يوم مكتمل . كيف يا ترى ، كانت ردة فعل دايفد على عدالة راؤول المتوحشة ؟

اقتحمت الدموع مآقيها حيث تساءلت كيف لكارلا أن تعيش تحت رعاية هيلين . . وكبحت شهقة بكاء . . ربما ذلك التهديد بارسال الطفلة إلى مدرسة الدير الداخلية ، والتي كان القصد منه ابتزازها ، قد يتحقق حين تدخل هيلين القصر . . كم ترغب أن تكرهه ، لكنها لن تستطيع . . ليس حين تفكر بالعديد من الرجال ممن وقعوا تحت تأثير سحر جمال هيلين . منذ الطفولة كانت تقف في ظلها ، مربوطة اللسان أمام جرأتها ، تُعجب بحيويتها ، لكن ، دائماً تخاف سلاطة لسانها القاسي اللاذع . فجأة ، وهي تجلس على جدار الميناء ، الذي يغسل البحر أسفله ، قررت أمراً . . لن تسمح بأن تتدمر سعادة كارلا ، ولا أن تُفسد طفولتها . . بإذن من راؤول أم دون إذن . . ستأخذ الطفلة معها حين ترحل !

جزء كبير من حمل تعاستها ارتفع عن كاهلها بهذا القرار . . خطواتها كانت أخف حين توجهت بعد ساعة إلى الحدائق حيث الأزهار متنعشة والطواويس تتمشى بغطرسة أمام المتفرجين المذهولين بجمالها . . وبدأ

فوج السواح يشق طريقه من برودة كهوف ما تحت الأرض . فانتظرت جيما مبتسمة تتوقع في أي لحظة أن تسمع صوت كارلا يناديها . . لكن المجموعة أخذت تخفّ بالتدريج واحداً بعد واحد تركب المركبات المنتظرة إلى أن لم يبق سوى هيلين لم تظهر بعد . . باحساس قلق توجهت جيما إلى الباب الخشبي الضخم الذي يحدد مدخل الكهف . وهي تنزل المنحدر ، أخذ الرعب يسرع خطواتها حتى كادت تركض حين ظهرت هيلين من العتمة واستدارت لتغلق الباب ، تنوي اقفاله بالمفتاح الضخم في يدها .

شهقت جيما :

ـ أين كارلا؟ لم أشاهدها بعد !

قطبت هيلين :

ـ أواثقة أنت؟ الشيطانة الصغيرة افلتت مني حين كنّا في منتصف طريق الدخول ، ولم أقلق فقد أحسست أنها قد تكون مع بعض الأطفال . . اسمعي ، ادخلي إلى الكهف وناديها ، إذا كانت لا تزال في الداخل ستأتيك راكضة . . وسافتش أنا في العربات ، وأسأل ما إذا كان قد شاهدها أحد . . لا تقلقي على الأرجح ساجدها في احدى العربات !

لم تنظر جيما لتقول لها ما رأيها بإهمالها ، وركضت إلى النفق المظلم ، وهي تتجه نحو أول كهف مضاء أمامها ، تنفست بعمق تحضيراً لمناداة كارلا . . لكن الظلام الدامس داهمها وهي على وشك اطلاق النداء ، فاستدارت ، لكن مسمرة في مكانها ، حين سمعت صوت ضربة مدوية تتردد في المكان الصامت . . ثم أخذت موجات منذرة بالشرّ تتسابق لتتشبث كالمخالب في سلسلتها الفقرية بعد أن أدركت سرّ الضربة الغامضة . . إنها صوت اصطدام الباب الخشبي الضخم يقطع وسيلة

وصولها الوحيدة إلى العالم الخارجي أمامها !

ولفترة آيونية ظنتها لن تنتهي ، وقفت متصلبة في الظلام . تأمل أن يعرف من أقفل الباب عليها بوجودها هناك ويعود . لكن ما من صوت من الناحية الأخرى سوى تنقيط الماء من ارتفاع الكهف إلى بركة قريبة ، وصوت تنهيد الهواء المندفع نحو قباب السراديب وثنايا الكهف . . صوت الطقطقة ، والصلصلة ، جعلتها ترتجف . . ربما هذه أصوات تحرك حيوانات صغيرة . . أو وقع استيقاظ أرواح مدفونة . . .

شجعت نفسها بصوت مرتفع :

ـ لا تفزعي ! فكري يا فتاة . . فكري ! الديك مشعل . . ؟ لا . . الديك ثقاب إذن ؟

فتشت في حقيبة يدها وأحست براحة كبرى حين استسلمت علبة ثقاب لأصابعها المفتشة . . كانت ترتجف لدرجة كادت لا تستطيع معها أن تشعل عود ثقاب واحد . لكن حين فعلت أحست أن العتمة المظلمة أفضل بكثير من الخيالات والظلال المخيفة التي شكّلها نور الثقاب من تشكيلات الممسوخة للحجارة . على الأقل ، قدماها مسمرتان في وسط الممر ، هذا ما سجلته في رأسها قبل أن تنطفيء الشعلة .

بكل حذر ، استدارت ، وبدأت تعود . . في مكان ما قرب المدخل هناك مقبس كهرباء عام للإنارة . لو استطاعت أن تجده وتضيء الأنوار ، ستصبح ورطتها محمولة أكثر . . إنش وراء إنش أخذت قدماها تزحف إلى الأمام ، تقاوم الخوف الهستيري وهي تقول لنفسها في لهجة ثابتة :

ـ يجب أن يبدأ الممر بالتصاعد في مكان ما هنا . . ثم هناك سلم . . حوالي الأربعة عشرة درجة . . إذا كنت أذكر جيداً . . بعدها يجب أن يكون المقبس في منتصف مسافة الجدار إلى الأعلى . . إلى اليمين . . لا . . بل اليسار . . فأنا الآن في اتجاه معاكس .

بدأ العرق يتساقط ما بين كتفيها . . والتقدم بطيء . . كان يجب أن تصل السلم الآن . . لكن الظلمة خادعة . .

اصطدمت قدمها بحجر . . فتدحرج إلى الأمام . . فتوقفت فجأة ، واسندت نفسها إلى الجدار ، تفكر بشدة . . لو أنها تصعده مرتفعاً ، فالحجر يجب أن يتدحرج إلى الخلف ! يجب أن تضحي بعود ثقاب ، تحس أنه ثمين ، لتتمكن أن تجد اتجاه سيرها . . لكن بعد أن اشتعل العود ، أخذ الرعب والعجز يسخران من محاولتها المتفائلة . . إنها ضائعة . بطريقة ما كانت قد خرجت من الممر الذي يقود إلى المخرج ، أمامها لم يكن هناك سوى الماء والحجارة ، وكهف عميق عمق الزمان . . وكان عليها أن تقوم بجهد فوق طاقتها لتمنع نفسها من الصراخ . ربما ما تحتاجه هو تخطيط لتحركاتها ! حرارة الهواء لم تكن منخفضة كثيراً ، لكنها تكفي لأن تجعلها ترتجف ، لو جلست دون حركة ، بحذر ، فتشت في حقيبة يدها لتجد قطعة طبشور تخبيء كارلا مثلها عادة في الحقيبة . أمسكت بها بين أصابعها ، تلامس الجدار ، تمررها على سطحه وهي تسير . . لا بد أن هناك من سيبدأ التفتيش عنها قريباً . . وحين يصلوا . سيساعدهم وجود أثر يتبعونه .

استمرت في السير إلى ما بدا لها أميالاً كثيرة . . أحياناً كانت تخوض في تجمعات غير مرئية للمياه ، أحياناً تصطدم بصخور مدببة ، وبعض الأحيان تدخل أماكن تبدو لها عميقة لدرجة أن جوها مختلف غريب . لكنها تابعت تقدمها ، وبدأت تحس بالجوع والعطش ، حتى أنها تاقت للراحة . لم يكن معها بعد سوى أربع عيدان ثقاب . فاستخدمت واحداً لتبحث عن مكان ترتاح فيه . وتملكها الرعب أكثر حين شاهدت على نور الشعلة لمعان المياه . . وأن الممر لم يعد سوى نتوء قليل العرض ملتصق بجدار من الصخور . خطوة خاطئة ، كان يمكن لها أن ترميها في بركة

الصمت العميق ! .

دفعها العطش لأن تمد يدها إلى الماء . . لكنه مالح . فبصقت . البرد أخذ يتسلل عبر بنطلونها القطني إثر جلوسها إلى الأرض الرطبة . والقميص الخفيف لا يشكل حماية تكفي لكتفيها . وتحركت لكنها انكمشت ألماً حين وخزتها صخور حادة كرؤوس الأبر ، وبقيت تصرخ ألماً ورعباً حتى تجرحت حنجرتها . لكن صرخاتها ترددت في صدى ساخر ، تصطدم بجدران الكهف وتعود إليها . . مرتين فقدت الوعي ، فترات فقدان الوعي كانت نعمة لها ، لكنها يمكن أن تكون لساعات أو حتى أياماً . . إنها الآن في فراغ من الظلمة والوقت . . حيث لا شيء يهم . . حتى هجران راؤول لها .

فجأة قفز شيء من العتمة يصدر صوتاً حاداً وهو يرفرف أمام وجهها . . . وزعقت رعباً . . آخر جهد من ذعر مجنون ، تولد من يأس مطلق . ثم انخفض الجهد إلى شهيق بكاء قبل لحظات من عودتها إلى فقدان الوعي .

كانت تهذر في هذيان محموم . . تنادي راؤول . . وتسمعه يرد عليها . . كانت قبضته شديدة حول جسدها وهو يحملها بين ذراعيه . . وجهه بدا لها مرعب وكأنه وجه وحش . . وجه منحوت من الصخر وعينان مذهولتان كأنهما تحدقان إلى الجحيم . وتلاشى منها الخوف ، مع أنها كانت لا تزال تحس بالخطر يحيط بها ، إلاّ أنها لم تعد لوحدها . . راؤول كان يشاركها هذا الكابوس . . وأرادت أن تطمئنه لكن الكلمات لم تخرج من فمها . فشاركت بروحها فقط بالعذاب الذي عبّر عنه بشفتين مضمومتين غضباً :

ـ بورديوس . . وحق الله ! سيعاني أحد نتيجة هذا العمل الشيطاني !

فتحت عينيها كرفيف جناح فراشة ، لتحس بالارتياح العظيم لرؤية ما يحيط بها من لؤلؤ وعاج في غرفة نومها . حركة بسيطة لفتت انتباهها ، فاستدارت نحوها . . كان راؤول يجلس على كرسي قرب سريرها ، رأسه الأسود الشعر يرتاح على قائمة السرير . وعيناه مغمضتان . . أحست بإحساس ذنب كسول لم يمنعها من النظر بلهفة إلى خطوط وجهه الخالية من أي دفاع . . حبست أنفاسها بسرعة حين تحرك ، لكن انفاسها افلتت حين شاهدت فمه يكوّن اسمها . الصوت ، برغم انخفاضه ، ايقظه ، وأرسل نظرته المجفلة تنظر إلى وجهها . . فتمتمت :

ـ يوناس رياس !

ـ يا إلهي ! لأيام الآن ونحن نراقبك يائسين من حياتك . . حتى من سلامة عقلك . . مع ذلك حين تستيقظين تتمنين لي صباحاً طيباً !

وبدأ يضحك بنعومة ، لكن على شفير اليأس . . فقطبت جبينها ، محتارة لردة فعله . واضح أنه كان تحت ضغط شديد ولّد عند افلاتة منه مثل هذا الارتياح المجنون . فجأة تذكرت :

ـ كارلا . . ! ماذا حدث لها . . أهي سالمة . . ؟

أعادها بلطف إلى الوسائد :

ـ إنها سالمة تماماً . . في الواقع لم تتعرض إلى أي خطر .

ـ إذن . لماذا . . . كيف حدث كل هذا . . . ؟

قطبت محاولة مكافحة الدموع :

ـ لا تبكي صغيرتي . . كل شيء على ما يرام .

فجأة تحطم دفاعه ، ورفعها بين ذراعيه إلى صدره :

ـ لأجل السماء ! أحبك . . ! يا إلهي كم أحبك !

لطالما حلمت بحبه لها . . . لكن حدسها لم يصل يوماً ، ولو من

بعيد، إلى تصور هذه المشاعر التي اثارتها قبلة الإخلاص التي طبعها على رأسها . . بحنان حاد، تقبل استسلامها، وبدد شكوكها بشوق اقنعها أنه يعانقها كامرأة، امرأة مرغوبة فاتنة. وليس كطفلة تروق له، الحياة حتى الآن ، لم تكن لطيفة معها، لكن كل توق لها للسعادة، كل دمعة مريرة ، كل تنهيدة مؤلمة، طمسها الفرح في معرفتها، بطريقة ما لا تصدق ، انها أصبحت جزءاً أساسياً في سعادته. وكرر همسه :

ـ أرجوك صغيرتي . . لا تتركيني أبداً !

بعد وقت طويل من هذا. حين سيطر على مشاعره لفت يديها حول وجهه وسألت :

ـ منذ متى أحببتني . . حبيبي ؟

ـ منذ متى؟ أظن ربما منذ وجدت كارلا تلعب مع مخلوقة نحيلة صغيرة ، عيناها الذهبيتان بدتا تتوسلان لي كي أكون لطيفاً. كنت أشك يومها إنها لصة، لكن يوم زفافنا حين أقسمت على حبك والعناية بك حتى الممات، أدركت كم أنت سارقة لقلبي .

همست وقد زالت كل ريبة من نفسها :

ـ إذن، كان زواجنا زواج حب راؤول!

ـ لم يرتكب رجل من قبل مثل أخطائي المميتة في توقي لأن احتفظ بك إلى جانبي . . وأصبحت الآن تعرفين أفضل طريقة لعقابي كارا . . لكن أرجوك، أتوسل إليك ، لا تمارسي مثل هذا العقاب عليّ كثيراً . .

لفت ذراعيها حول عنقه :

ـ لن تتألم مطلقاً على يدي حبيبي . . ليس كما تألمت في الماضي .

أذهلها كيف فهم ما في ذهنها بسهولة :

ـ والدة كارلا كانت جميلة جداً. لكنها كانت تنقص الدفء والإخلاص الذي يسعى إليهما الرجل في زوجة . حين هددت بتركها،

ردت بتهديدي بالزواج من أخي . . طبعاً حاولت انذاره من استخدامها له كسلاح انتقام. لكن تحذيري فسّره الجميع أنه غيرة. حتى دون دياغو الذي يجب أن يعرف أكثر من هذا . وقررت أنهما يحتاجان إلى الوقوف على قدميهما دون مساعدتي . . وحين أخبرتهما بقراري تركا الكازا غاضبين، وبعد بضع دقائق وصل خبر مقتلهما !

رفعت يدها تتلمس وجهه وتقول له باهتمام :

ـ أحبك راؤول !

همس :

ـ شكراً لك عزيزتي . . كنت أعتقد أنك لن تتفوهي بمثل هذه الكلمات الرائعة !

ضربات خفيفة على الباب سبقت دخول دون دياغو الذي تنحى جانباً ليسمح للطبيب بالدخول . . ونظر الرجلان إلى الفتاة التي يقبلها رجل لا يبدو عليه استعداد لتركها .

فابتسم دون دياغو للطبيب :

ـ فليتقدس اسم السماء! أحس أن خدماتك لم تعد مطلوبة أيها الطبيب، فكما يُقال : «الحب أكثر الأدوية شفاء !» .

أخرج دياغو راؤول إلى غرفته ليعوض القليل من النوم إثر يومين من المراقبة الوحيدة إلى جانب سرير جيها. وقال لها مفسراً :

ـ لم يكن يسمح لأحد بالاقتراب منك ما عدا الطبيب . لم أشاهد رجلاً مخبول العقل مثله ليلة فقدناك . وحين وجدك . . ! يا للمسكين! لا أرغب مطلقاً في أن أرى مثل ذلك التعبير عن العذاب على وجه أحد إذ ظنك تموتين!

سمح لها الطبيب في الجلوس تحت أشعة الشمس على شرفتها، وسمح كذلك لكارلا بزيارتها، لكنها الآن كانت تلعب في الحديقة تحت

www.elromancia.com

أنظارها . . وسألت جيما :

ـ ما الذي حدث حقاً بعد ظهر ذلك اليوم دون دياغو ؟ هل ضاعت كارلا ؟ أم أنها مرّت أمامي ولم اشاهدها ؟

ـ لم تدخل الكهف أصلاً . فقد غيرت رأيها وطلبت من هيلين إعادتها إليك ، وحين لم تجداك طلبت منها هيلين الانتظار في مقهى قريب إلى أن تنهي عملها .

ـ لماذا لم تقل لي هيلين هذا بدلاً من ارسالي إلى الكهف؟

ـ أجل كارا . . تخمينك صحيح ! أقفلت عليك هناك متعمدة . ربما كانت ترجو أن يصيبك شيء يعطيها فرصتها التي تنتظرها من السماء لتحصل على راؤول .

ـ وهل اعترفت بهذا ؟

ـ وتحت ضغط كبير . راؤول يمكن أن يكون دون رحمة حين يريد .

ولم يمضِ عليها ساعة حتى انهارت واعترفت بمكان وجودك . لكنه لم ينتظر ليدينها بل أسرع كالمجنون ولم استطع سوى الإحساس بالارتياح حين عرفت أنها غادرت الجزيرة على أول طائرة إلى اميركا . فلو بقيت هنا حين عاد بك لكان قتلها دون وخز ضمير .

واستيقظ راؤول ، سمعته جيما يستحم ، ثم سمعت صوت الأدراج تنفتح وتنغلق . . كان الوقت متأخراً لكنه كان قد نام لساعات ، ولا بد أنه منتعش الآن . . ولم تكن هي قادرة على النوم ، كان الخوف على ما يبدو ، يلعب دوراً متكاملاً في علاقتها مع الرجل الذي بالكاد تتقبله كزوج . كانت تخاف غضبه ، تخاف جاذبيته ، وتجد الموت أهون عليها من هجره لها . . لكن الخوف يتجدد الآن من أن يجدها ، الرجل الذي عكست عيناه التردد حين تركها ليعطي جسده بعض الراحة ، أن يجدها راغبة . . كم من عرائس تيميرا انتظرن في هذه الغرفة تتقاذفهن نفس

الشكوك ؟

كانت تقف عند النافذة حين دخل الغرفة من الباب المشترك . . . ولم تتحرك ، بل انتظرت إلى أن انضم إليها ، حين أحست بذراعيه تلتفان بلطف حول خصرها ، تراجعت إلى الوراء إلى أن استند رأسها على صدره .

متعمداً ، ارجع الشعر عن مؤخرة عنقها وطبع قبلة على كتفها :

ـ بينا كويستا ! أيتها المحبوبة !

استدارت جيما لتدفق وجهها فوق قلبه وشاهدت لمعان اللؤلؤ في يده ، بصمت ، رفع يدها ليعيد خاتم الطهارة لعائلة تيميرا إلى إصبعها . . قبل أن يجذبها إليه ليطبع ختم الأخلاص على رأسها . لم يكونا بحاجة إلى كلام . . أحست أنها عادت إلى حيث تنتمي بعد فترة نفي طويل . وحملها كمن يحمل الغنيمة الثمينة نحو السرير ، وسمعت حشرجة أنفاسه عميقاً في صدره . وتعرفت على صوت لم تعرفه سوى عرائس تيميرا المحبوبات المدللات . . . صوت هرير الدراغون !

www.elromancia.com